



نجيب محفوظ

رحلة ابن فطومة

(مكتبة مصر)

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديقي - البجالة

To: www.al-mostafa.com

دار مصر للطباعة
ميدان جوده السحار وشركاه

مطبعة ابن بكبة ملهز

رحلة ابن فطومة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر
٢ شارع لانسديق - الجيزة

دار مصدر للطباعة

سعد جودة السحار وشركاه

الوطن

الحياة والموت ، الحلم واليقظة ، محطات للروح الحائر ،
يقطعها مرحلة بعد مرحلة ، متلقيا من الأشياء إشارات وغمزات ،
متخبطا في بحر الظلمات ، متشبثا في عناد بأمل يتجدد باسمها في
غموض . عم تبحث أيها الرحالة ؟ ، أي العواطف يجيش بها
صدرك ؟ ، كيف تسوس غرائذك وشطحاتك ؟ ، لم تفهقه ضاحكا
كالفرسان ؟ ، ولم تذرف الدمع كالأطفال ؟ وتشهد مسرات
الأعياد الراقصة ، وترى سيف الجلال وهو يضرب الأعناق ، وكل
فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم . وتستأثر
بوجدانك ظلال بارعة براعة الساحر مثل الأم والمعلم والحبيبة
والحاجب ، ظلال لا تصمد لرياح الزمن ولكن أسماءها تبقى
مكحلة بالخلود . ومهما نبا بى المكان فسوف يظل يقطر ألفة ،
ويسدى ذكريات لا تنسى ، ويحفز أثره في شغاف القلب باسم
الوطن . سأعشق ما حيت نفثات العطارين ، والمآذن والقباب ،
والوجه الصبيح بضئ الزقاق ، وبغال الحكم وأقدام الحفاة ،
وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب ، والجياد الراقصة وأشجار

البلابل ونوح اليمام وهديل الحمام . وتحدثنى أُمى فتقول :
— يوم مولدك .

وتهز رأسها جميل التكوين فأقول بحبور :

— بل يومك هو الأصل !

كان أبى محمد العنابى تاجر غلال مترعا بالثراء . أنجب سبعة تجار مرموقين ، وعمر حتى جاوز الثمانين متمتعا بالصحة والعافية . وفى الثمانين رأى أُمى الجميلة فطومة الأزهرى وهى بنت سبعة عشر ، آخر عنقود جزار يدعى الأزهرى قطائف فغزت قلبه وتزوج منها وأقام معها فى دار رحيبة اشتراها باسمها محدثا فى أسرته غضبا وشغبا . اعتبر إحقوقى الزواج لعبة قدرة غير مشروعة ، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضى وكبير التجار ولكنه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة ، فاعتد الزواج حقا لا يقبل المناقشة ، وفارق السن وهما يتعلل به المغرضون ، وراح ينهل من معين سعادته بقلب ملء بالثقة .

— وجاء مولدك مؤكدا للهزيمة مجددا للغضب !

وأقول لها كثيرا :

— لا حد لطمع الإنسان !

فمنذ جدائتى وأنا أتلقى أجمل الكلمات رغم ارتطامى بأقبح الفعال . وسمانى أبى « قنديل » ولكن إحقوقى أطلقوا على « ابن فطومة » تبرا من قرابتى وتشكيكا فيها . ومات أبى قبل أن يطبع صورته فى وعيى

تاركا لنا ثروة نضمن حياة رغدة حتى آخر العمر . وقطعت الخصومة ما بيننا وبين إحقوقى . وخافتهم أُمى على نفسها وعلى فأطاحت بها الوسوس والظنون حتى قررت ألا ترسلنى إلى الكتاب . فعهدت لى إلى الشيخ مغاغة الجبلى — وكان جارا لأسرتها — ليلقتنى العلم فى دارى . وعنه تلقيت دروسا فى القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوف والرحلات . كان فى الأربعين ، قويا مهيبا ، ذا حية رشيقة وعمامة عالية ، وجبة أنيقة ، وعينين لامعتين ثابقتى النظرة ، يمد صوته الملىء عند إلقاء الدرس ، ويرسله على مهل وهدهوء ، ويذل الصعب بجودة الشرح ورقة الابتسامة . وكانت أُمى تتابع الدروس باهتمام مستفيدة من فراغها الطويل ، تنصت من وراء ستار ونحن فى القاعة شتاء ، ومن وراء خصاص ونحن فى السلامك فى بقية الفصول ، وكانت تقول لى :

— أراك سعيدا بمعلمك ، وهذا حظ حسن ..

فأقول لها بحماس :

— إنه شيخ عظيم ..

وكان يخصص وقتا للمناقشة ، فيطرح ما يرى من أسئلة ولكنه يدعونى لإعلان خواطرى ويعاملنى معاملة الراشدين .

ويوما — لا أذكر فى أى فترة من العمر — سألته :

— إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدهم الطرقات بالفقراء

والجهلاء ؟

فأجابني بأسى :

— الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعداها إلى الخارج !
ويفيض في الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه .. حتى الوالى لا يسلم
من شره . وقلت له :
— إذن إبليس هو الذى يهيمن علينا لا الوحي .

فقال برضا :

— أهتلك على قولك ، إنه أكبر من سنك ..
— والعمل يا سيدنا الشيخ ؟
فقال بهدوء :

— أنت ذكى ، وكل آت قريب ..
أما حديثه عن الرحلات فمثار للعشق والسرور . وتكشف في مجرى
حديثه عن رحالة قديم . قال :

— عرفت الرحلات في صحبة المرحوم أوى فطوفنا بالشرق
والغرب ..

فأقول بلهفة :

— حدثني عن مشاهداتك يا سيدنا .
فحدثني بسخاء حتى عابشت بخيالى ديار المسلمين المترامية ،
تبدى لى وطنى نجما فى سماء مكتظة بالنجوم . وقال :

— ولكن الجديد حقا لن تعثر عليه فى ديار الإسلام !

وتساءل عيناى عن السبب فيقول :

— جميعها متقاربة فى الأحوال والمشارب والطقوس ، بعيدة كلها
عن روح الإسلام الحقيقى ، ولكنك تكتشف ديارا جديدة وغريبة فى
الصحراء الجنوبية ..

أثار أشواقى لدرجة الاشتعال ثم قال :

— قمت بتلك الرحلة وحدى عقب وفاة أبى ، فزرت ديار المشرق
والحيرة والحلبة ، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب
والجبل ، ولكن القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهلية فى دار
الأمان ..

ويحدثنى بنظرة غريبة ثم يقول :

— وهى ديار وثنية !

فهتفت :

— أعوذ بالله !

— ولكن الغريب لا يلقي فيها أو فى الطريق إليها إلا الأمن لحاجتها

الملحة إلى التجارة والسياحة ..

فهتفت مرة أخرى :

— ولكنها ملعونة ..

فقال بهدوء :

- لا حرج على المشاهد .
 — ولمَ لم تعاود الكرة ؟
 — ظروف الحياة والأسرة أنستنى أهم هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل .
 فسألته بشغف :
 — وما خطورة دار الجبل ؟
 فقال متنهدا :
 — تسمع عنها الكثير ، كأنها معجزة البلاد ، كأنها الكمال الذى ليس بعده كمال ..
 — لا شك أن كثيرين من الرحالة قد كتب عنها ..
 فقال بنبرة لم تخل من أسى :
 — لم أصادف فى حياتى آدميا ممن زاروها ، ولا وجدت كتابا عنها أو مخطوطا ..
 فقلت بضيق :
 — إنه أمر عجيب لا يصدق ..
 فقال بكآبة :
 — إنها سر مغلق ..
 وكأى سر مغلق شدنى إلى حافته ، وغاص لى فى ظلماته ، وضمم النار فى خيالى ، وكلما ساء لى قول أو فعل رقت روحى حول دار

- الجبل . وراح الشيخ مغاغة الجبلى ينور عقلى وروحى ويدد الظلام من حولى ، ويوجه أشواقى إلى أنبل ما فى الحياة . وسعدت أسمى بما أكتسبه يوما بعد يوم ، وشاركت فى تكوينى بحبها وجمالها . متوسطة الطه ، كانت ، رشيقة العود ، تنضح بشرتها بالبياض والصفاء والملاحة . ولم تتردد مرة عن إعلان إعجابها بجمالى ولكنها قالت لى بنفس الصراحة :
 — كلامك كثيرا ما يكدر صفوى ..
 وتساءلت عن السبب فقالت :
 — كأنك لا ترى إلا الجانب القبيح من الحياة !
 ولم تكن تنكر أقوالى أو ترى فيها أى مبالغة ، ولكنها أفصحت عن إيمانها قائلة :
 — الله صانع كل شىء ، وله فى كل شىء حكمة ..
 فقلت مندفعاً :
 — ساء لى الظلم والفقر والجهل !
 فقالت بإصرار :
 — الله يطالبنا بالرضا فى جميع الأحوال .
 وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكن موقفه كان واضحا تماما فهو يؤمن بالعقل وحرية الاختيار ولكنه همس فى أذنى برقة :
 — تجنب إزعاج والدتك ..
 وهى نصيحة انسقت إلى اتباعها مدفوعا ومدعما بحبى الكبير لها ،

ولم أجد في ذلك مشقة فقد كانت سدا جنتها تعادل جمالها نفسه . غير أن الأيام التي وهبني الدرس والتربية دفعت بي أيضا إلى مشارف الشباب فهطلت السماء بأمطار جديدة ، وتجلت مشاهدتها على ضوء مشاعل جديدة . ويسألني الشيخ مغاغة الجبيلي :

— ماذا نويت أن تعمل في هذه الحياة التي لا تكتمل إلا بالعمل ؟ ولكنني كنت أرى حليلة عدلى الطنطاوى بعين جديدة . طالما رأيته على عهد الصبا وهي تقود أباه الضريع قارئ القرآن . لهم بيت صغير قديم في حارتنا التي تقوم فيها دارنا متألفة كالكوكب . وكان اهتمامي يتجاوزها إلى أبيها بقامته النحيلة وعيني المظموستين وأنفه الغليظ المجذور . أثار عطفى ودهشتى ، وأعجبني صوته وهو يؤذن للصلاة متطوعا أمام باب داره . وحولتني الأيام اللاهثة إلى البنت فاكشفتها من جديد . كانت أرض الحارة زلقة غب مطر خفيف ، وكان الشيخ يسير بحذر مسلما يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسس له مواضع قدميه بضربات متتابعة كمنقار دجاجة تنقب عن حب . وسايرته حليلة غائصة في جلباب فضفاض غامق اللون لا يظهر من خمارها المسدل إلا عينان ، ولكن هيبتها تمثلت لعيني المشربتين بماء الفتوة أنثى كاملة ، تتجسد جواهرها المستورة كلما خفق النسيم بجلبابها كأنها جمرات تحت رماد . وزلت قدمها أو كادت فشددت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخمار عن

وجهها فانطبع بتمامه على بصرى غارسا حسنه في أركان وجداني . تلقيت في لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافة الرموز التي تقرر مصير قلب . وسألتني أمى بناء على ما سمعته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذي تكتمل به الحياة :

— ألا توافقني أنه لا يصلح لك إلا التجارة ؟ فأدهشتها إذ قلت :

— إنى أفكر في الزواج أولا !

ورحبت بحرارة مؤجلة الحديث عن « العمل » ، وراحت تصف لي بعض بنات التجار ولكني أدهشتها مرة أخرى وأنا أقول :

— وقع اختياري على حليلة بنت الشيخ عدلى الطنطاوى ..

تلقت أمى ضدمة لم تدارها وقالت :

— إنها دون المطلوب في كل شيء !

فقلت بإصرار :

— ولكني أريدها ..

فقالت باستياء متجهمة الوجه :

— ستشمت بنا إخوانك !

ولكن إخواني كانوا كشيء لم يكن . وشعوري بأنى رجل الدار كان يتعاضد مع الوقت . وهى لم تعاندنى وإن ضنت على الموافقة ، وفي الوقت نفسه لم تفقد الأمل . وإذا بالأمر تجرى مع رغباتى وإن يكن

بشمن باهظ . مضت معارضة أمي تخف حتى قالت لي مسلمة :

— سعادتك أغلى عندي من أى شيء أو اعتبار ..

وفي الحال قامت بما ينتظر منها فذهبت من السراى إلى البيت المتهرى وخطبت لي حليلة . ومرة تالية صحبتني معها فجالسنا الشيخ عدلى الطنطاوى وحرمه ، ودخلت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بإبدائه من الوجه واليدين ، ومكثت دقائق معدودة ثم ذهبت . ومضى الاستعداد للزواج بسرعة محمودة . ولاحظت يوما أن أستاذى الشيخ مغاغة الجبلى يعانى ارتباكاً غير معهود ، وأنه يحدثني بنبرة جديدة تماماً . قال بهدوء وهو ينظر إلى مركوبه :

— ثمة أمر هام يا قنديل .

فأثار اهتمامي لأقصى درجة فقلت :

— رهن إشارتك يا مولاي ..

فقال بأسى :

— لم أعد أطيع وحدتى ..

كان الشيخ أرمل ، وقد أنجب ثلاث بنات تزوجن وقررن في

بيوتهن . سأله ببراءة :

— ولم تبقى وحيداً ؟ .. ألم يتزوج النبى عليه الصلاة والسلام عقب

وفاة السيدة خديجة ؟

— صدقت ، وهذا ما أفكر فيه ..

فقلت بحماس :

— وإنك لرجل ترحب به كرام الأسر .

فقال بحياء :

— ولكن مطلبى فى أسرتك بالذات !

فدهشت وأحذق لى انزعاج شامل . تساءلت :

— أسرقى ؟!

فأجاب بخشوع :

— أجل ، الست والدتك !

فقلت بعجلة :

— ولكن والدتى لا تتزوج !

— لم يا قنديل ؟

فحرت قليلاً ثم قلت :

— إنها أمي !

فقال بهدوء :

— الزواج شريعة الله سبحانه ، ولن يهون عليك أن تتزوج وتترك

أمك وحيدة !

وصمت قليلاً ثم قال :

— الله يهديننا إلى سواء السبيل ..

في وحدتى تلاطمت أفكارى ، وترتبت الأحداث فى خيالى فى

صورة جديدة كئيبة . قلت لنفسى إن إذعان أمى المفاجئ لرغبتى فى الزواج من حليلة ليس إلا نتيجة لرغبتها فى الزواج من الشيخ مغاغة الجبلى . حصلت أمور بريئة من وراء ظهرى ولكنها اعترضت حلقى ، وجدت نفسى فى موقف دقيق حرج ما بين أعز شخصين فى حياتى وبين غضبى وسخطى وحياتى . وهتفت من أعماقى :

— اللهم جنبنى الظلم والحق ..

الحق أننى سلكت سلوكا هو أحق بشخص أكبر منى سنا وتجربة . تركت الأمور تجري كما يشاء الله ، وأقنعت نفسى المتمردة بأن الزواج حق للرجل والمرأة ، وأن أمى ليست أما خالصة ولكنها امرأة أيضا ، وأنا خلقنا لنكايد الحقيقة ونصمد لها ، ونتلقى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين . وحملت التجربة بكافة أبعادها على عاتقى وفاتحت أمى بالموضوع بصراحتى المألوفة . وأبدت دهشة أحنقتنى وتمت :

— ما خطر لى ذلك ببال ..

فقلت ببرود :

— ولكنه حق وعدل .

ومضيت أمضى خيبتى على حين قالت هى فى تلثم :

— أريد فرصة للتفكير ..

اعتبرت ذلك أول إشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب

الرفض الواضح ، وانتظرت بقلب كئيب ، حتى همست لى فى حياء وارتابك :

— لتكن مشيئة الله !

وتأملت كيف تزخرف أهواننا بكلمات التقوى المضيئة ، وكيف ندارى حياءنا بقبسات الوحي الإلهى . وجرى الاستعداد المألوف لزواج الابن والأم ، وتم الاتفاق على انتقال أمى إلى دار الشيخ مغاغة وهى دار حسنة ، وانتقال حليلة إلى السراى . وصممت على أن ألوذ بالسعادة المتاحة نافضا عن ذيلى رواسب الأكدار . ولكن هبط علينا قدر فنسف خطتنا . زحم حياتنا الهادئة الحاجب الثالث للوالى فاقترحنا كعاصفة . رأى ذات يوم حليلة فقرّر أن يجعل منها زوجته الرابعة . وذعر الشيخ عدلى الطنطاوى وقال لأستاذى الشيخ مغاغة :

— لا قبل لى بالرفض !

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد ، فزفت حليلة إلى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة . انطويت على نفسى ذاهلا وأنا أتساءل عن قلب حليلة ، عن مشاعرها الدفينة ، هل شاركتنى ألمى أو أن لألاء الملك أسكرها وبهر عينها . ووجدتني فى وحدتى أقول لنفسى :

— خانتني الدين ، خانتني أمى ، خانتني حليلة ، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة ..

بدا كل شيء كالحا ، وبدءا من أبسط الأفراد مثل الشيخ عدلى (رحلة ابن فطومة)

الطنطاوى حتى الوالى نفسه ، مرورا بأناس ومعاملات تستحق
الطوفان ليحل محلها عالم جديد نظيف . لم أتأثر بعطف أمى وحزنها ،
ولا حكم الشيخ مغاغة التى ذرها على ، بدت لى الدنيا صفراء كريمة
لا تحتمل ولا تعاشر . وقالت لى أمى :

— يجب أن تتزوج فى أقرب وقت ولعل الله يدخر لك أفضل مما
اخترت !

فهازت رأسى رافضا ، فقال الشيخ مغاغة :

— اشرع فى العمل بلا تأخير .

فهازت رأسى أيضا .. فقال الرجل :

— لديك ولا شك خطة .. ؟

فقلت معربا عن عواطفى الجائحة :

— أن أقوم برحلة !

فتساءلت أمى فى انزعاج :

— أى رحلة ؟ .. إنك لم تكد تبلغ العشرين من عمرك !

فقلت :

— هى أنسب سن للرحلة ..

ونظرت إلى أستاذى مليا وقلت :

— سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولكنى لن أتوقف كما توقفت
بسبب الحرب الأهلية التى قامت فى الأمان ، سأزور الأمان والغروب

ودار الجبل ، أى وقت يلزمنى لذلك ؟

فقال الشيخ مغاغة الجبيلى وهويلحظ أمى بإشفاق :

— يلزمك عام على الأقل إن لم يزد .

فقلت بتصميم :

— ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة ، أريد أن أعرف ، وأن

أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى ..

وهمت أمى بالكلام ولكنى سبقتها قائلا بحزم :

— إنه قرار لا رجعة فيه ..

واستحوذ على الحلم ، وتلاشى الواقع ، وتراءت دار الجبل لعين

خيالى كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم ، فنضجت الرغبة

الأبدية فى الرحلة على لهيب الألم الدائم . وأذعن الشيخ مغاغة الجبيلى

للواقع فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا . كان فى الأربعين ، يدعى

القانى بن حمديس ، قوى البنيان والرأى . قال الشيخ مغاغة :

— أود أن يذهب معك ويرجع معك .

فقال الرجل :

— هذا يتوقف على رغبته ، نحن نقيم فى كل دار عشرة أيام ، فيمضى

معنا من يقنع بها ويتخلف من يروم المزيد ، وعلى أى حال توجد قافلة

كل عشرة أيام ..

فقال لى الشيخ مغاغة :

— عشرة أيام فيها الكفاية ..

فقلت :

— أعتقد ذلك ..

أما أمي فركزت على مسألة الأمن فقال لها الرجل بوضوح :
— لم تتعرض قافلة لهجوم أبدا ، إن أهل البلاد لا يحظون بعشر
معشار ما يحظى به الغريب من حماية ..
وأخذت في الاستعداد للرحلة مسترشدا بأستاذي الشيخ مغاغة
فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر
والأقلام والكتب . ورأيت أن يتم زواج أمي بالشيخ قبل رحيلي ، غير
أن الشيخ انتقل إلى السراي حتى لا تهجر بلا ساكن . ولبستني حال
جديدة ، فقل تفكيرى في أحزاني ، وهيمنت الرحلة على خواصي ،
وانفسح أمامي مجال غير محدود للأمل ..

كناز المشوق

ودعنتي أني وداعا خارا دامعا وهي تقول :

— أغنانا الله عن ذلك كله ولكنها إرادتك !

فقلت لنفسي : « على أي حال لم أتركك وحدك » وصحبني
الشيخ مغاغة الجبيلي إلى ميدان المكوس فبلغناه قبيل الفجر ، ورأينا
القافلة على ضوء المشاعل . امتد الظلام حولنا يتنفس نسائم الربيع
وفوقنا ترامقت النجوم الساهرة . همس الشيخ مغاغة في أذني :
— لا تتخلف عن قافلة ابن حمديس .

على حين ارتفع صوت صاحب القافلة وهو يهتف :

— السير عقب صلاة الفجر .

ورآنا فصافحنا وقال لي :

— جميع الرفاق من التجار وأنت الرحالة الوحيد بيننا !

فلم يسرني ذلك ولم أتكدر له . وارتفع صوت الأذان محلقا
فوق الرؤوس فمضينا نحو جامع السوق ، وانتظمنا في آخر صلاة
جامعة تتاح لنا . وانطلقنا من الجامع إلى القافلة فاتخذنا مجالسنا مع
الحقائب . وبدأ الطابور يتحرك على إيقاع حاد فغاص قلبي بحنين

الوداع وتحركت في أعماقه ذكريات أمي وحليمة في غلاف من
ذكريات الأسى الشامل الذي يحتوى وطنى كله . وغمغمت في أحضان
الظلام :

— اللهم بارك خطاى .

وأخذت الظلمة ترق ، وتلوح بشائر النور الموعود في الأفق ، حتى
تخضب بحمرة باسمة وبزغ حاجب الشمس ، ناشرا الضياء فوق صحراء
بلا حدود . تجلت القافلة خطا راقصا في صفحة كونية متحدية
بالجلال ، وانغمر جسمى في حركة رتيبة متتابعة تحت موجات من نور
متدفق ، وهواء سابح ، وحرارة تتصاعد منذرة بالعنف ، ومنظر ثابت
بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية . لذت من المنظر الواحد بنفسى
فغصت في ذكرياتها الملحة وانفعالاتها المرة ، وأحلامها الوردية . وعند
كل عين ماء كنا نتوقف للطعام والوضوء والصلاة والسمر . عرفت نخبة
من الرفاق التجار ورمقوا « الرحالة الوحيد » بنظرات غريبة . وقلت
مفسرا ومتباهيا :

— سأذهب حتى دار الجبل !

فتساءل أحدهم باستهانة :

— وما دار الجبل ؟

وقال ثان بفخار :

— نحن دار الإسلام ..

وقال ثالث :

— التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران ..

وقال رابع :

— كان النبى عليه الصلاة والسلام تاجرا .

فقلت كالمعتذر :

— وكان أيضا رحالة ومهاجرا !

فقال الأول :

— ستبدد ثروتك في الترحال وترجع إلى بيتك فقيرا ...

فقلت كاظما غيطى :

— لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل ...

وكنت أحترم التجارة ولكننى آمنت بأن الحياة رحلة كما هي تجارة .
وتتابعت الأيام طويلة وثقيلة ، حارة بالنهار باردة بالليل ، رأيت النجوم
كما لم أرها من قبل جليلة ساحرة لا نهائية ، وعرفت أن حزنى من أمى
أكبر مما تصورت ، وأن حبي لحليمة أقوى من أن يؤثر فيه الليل والنهار
والنجوم والتطلع نحو المجهول . وسرنا ما يقارب الشهر حتى لاحت لنا
من بعد أسوار دار المشرق . عند ذاك قال القانى بن حمديس :

— سنعسكر عند العين الزرقاء ، وندخل الدار عند منتصف الليل .

وأعددنا أنفسنا . ولما صلينا العشاء سمعت من يهمس :

— آخر صلاة حتى نرجع من بلاد الوثنية !

فامتعضت كثيرا ولكنى كنت أعد نفسى لحياة جديدة طويلة فقلت
لنفسى : « الله غفور رحيم » .

وقبيل منتصف الليل تقدمت القافلة من الدار الجديدة . وقابلنا عند
المدخل رجل عارى الجسد إلا من وزرة تستر العورة ، بدا طويلا نحيلًا
على ضوء المشاعل ، وقال الرفاق إنه مدير الجمرك . قال الرجل بصوت
جهورى :

— أهلا بكم فى الشرق عاصمة دار الشرق ، إنها ترحب بالتجار
والرحالة ، ومن يلزم حدوده فلن يلقي إلا الطيب والجميل .

ودخلت القافلة بين صفين من الحراس ، فمضى التجار إلى
السوق ، ومضى بى دليل إلى فندق الغرباء . أناخ الجمل أمام سراق
كبير كأنه ثكنة ، وحمل الدليل حقائبى إلى الداخل فأدركت أنه فندق
الغرباء .. كان سراقا كبيرا منقسما إلى جناحين يفصل بينهما بهو ممتد ،
وكل جناح يحوى غرفا متلاصقة أضلاعها مبنية من الأقمشة الوبرية ..
وكانت الحجرة التى اختيرت لى بسيطة بل بدائية ، أرضها رملية ، وبها
فراش عبارة عن خشبة مطروحة على الأرض ، وسحارة للملابس ،
وشلثة فى الوسط . وما إن فرغت من تفقد حقائبى حتى هرعت إلى
الفراش بخنين شخص حرم من الرقاد الطبيعى شهرا كاملا ، فتمت نوما
عميقا حتى أيقظنى حر النهار . ونهضت كالمتوعلك ، ومرقت إلى البهو
فوجدته مكتظا بالنزلاء وقد جلسوا أمام حجراتهم يفطرون . وجاءنى

رجل قصير لا يخلو من بدانة مؤتترا بما يغطى العورة وقال لى باسم :

— أنا فام صاحب الفندق ، هل قضيت ليلة مريحة ؟

فقلت والعرق يسيل فوق جبينى :

— شكرا .

— هل آتيك بالفطور ؟

فقلت بلهفة :

— بل أريد الحمام .

وقادنى إلى نهاية البهو فأزاح ستارة فوجدت ما يلزمنى لأغتسل
وأمشط شعر رأسى ولحيتى الصغيرة . وعدت نحو غرفتى فوجدت فام
قد جاء بطبيلة وراح يعد لى الفطور . سألته :

— هل أستطيع أن أصلى فى غرفتى ؟

فقال محذرا :

— قد يراك أحد فتعرض لما يسوءك ..

وجاءنى بإناء به تمر ولبن وفطيرة شعير فأكلت بسرور حتى
شبع . وقال لى :

— كنت ذات يوم ممن يعشقون الرحلات .

فسألته :

— أنت من الشرق ؟

— أصلى من الصحراء ثم استقر بى المقام فى الشرق ..

سرنى أن أجد فيه رحالة قديما فقلت :

— دار الجبل هى الهدف الأخير من رحلتى ..

— وهى هدف الكثيرين ولكن أسباب الرزق حجزتنى عنها ..
فسألته بلهفة :

— ماذا تعرف عنها يا سيد فام ؟

فأجاب باسم :

— لا شئ إلا ما توصف به أحيانا كأنما هى معجزة الدهر ، ومع ذلك فلم أصادف رجلا واحدا ممن زاروها ..

وقال لى صوت باطنى بأئنى سأكون أول ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثم يعلن سرها للعالمين . وسألنى :

— هل تمكث طويلا فى المشرق ؟

— عشرة أيام ثم أذهب مع قافلة القانى بن حمديس ..

— عظيم ، سروانظر وتمتع بوقتك ، وحسبك غطاء للعورة ولا تزدد

عن ذلك ..

فقلت مستنكرا :

— لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة .

فقال ضاحكا :

— سترى بنفسك ، نسيت أن أسألك عن اسمك الكريم ؟

— قنديل محمد العنابى .

فرفع يده إلى رأسه تحية وذهب . غادرت الفندق فى الضحى متلفعا بعباءة خفيفة واسعة المسام ، لابسا عمامتى لتقينى الشمس . وأنا أعجب من حرارة الربيع وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون . ولدى مغادرتى الفندق هالنى أمران ، العرى والفراغ .

الناس ، النساء منهم والرجال على السواء ، عرايا تماما كما ولدتهم أمهاتهم . والعرى عادة مألوفة لا تلفت نظرا ولا تثير اهتماما ، كل ذاهب لوجهته ، ولا يثير الغرابة إلا الغرباء أمثالى لما يرتدون من ملابس . والأجساد نحاسية اللون ، نحيلة لا من رشاقة ولكن من قلة الغذاء فيما يبدو وإن غلب عليهم الرضى بل والمرح . وجدت مشقة لأزيل عن وجدانى الشعور بالشذوذ للملابس التى أرفل فيها ، ووجدت مشقة أكبر فى صرف بصرى عن مشاهد العرى المثيرة وما بعثته فى دمائى من نيران متأججة . وقلت لنفسى :

— يا لها من دار تقذف بمن كان فى شبابه إلى فتنة محرقة !

أما الأمر الغريب الثانى فهو هذا الفراغ الممتد المترامى ، كأنما انتقلت من صحراء إلى صحراء. أهذه هى حقا عاصمة المشرق؟ أين القصور، أين البيوت ، أين الشوارع ، أين الحوارى؟؟ لا شئ إلا أرضا تعلو جوانب منها أعشاب ترعاها الماشية ، وثمة تجمعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام ، يتجمع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر والمعيز . وهن عرايا أيضا ، وجمالهن لا بأس به ولكن تخفيه القذارة

والإهمال والفقر . الحق أنى لم أتماد في نقد مظاهر البؤس في هذا البلد
الوثنى الذى قد يكون له من وثنيته عذر ، ولكن أى عذر أعتذر به عن
أمثال هذه المظاهر في بلدى الإسلامى ؟ . وقلت لنفسى :
— انظر وسجل واعترف بالحقيقة المرة .

وفيما عيناي تدوران في حيرة ودهشة استحوذ على شعور بالهيمنان
استخرج من أعماقى العاشق الكامن . تذكرت حليلة بقوة مهيمنة
وغشيت صورتها الأرجاء مع الحرارة وأشعة الشمس . وحررت من
أمرى وقتا ولكنى لمحت فتاه تعدو ، قادمة من ناحية الفندق متجهة
كالسهم نحو بقعة مزدحمة وغاصت في عبابها فتوالت عن عيني . لعلى
لمحتها وهى ذاهبة أيضا . لعلى لمحتها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثرها
وأنا شبه نائم أو ذاهل . إنها وراء ما اجتاحتني من انفعال وجدانى عميق .
حقا إنها مشرقية نحاسية عارية ولكن تكوين وجهها صورة قريبة جدا من
صورة حليلة حبيبتى المفقودة ، بل قررت أن أقنع بأنها حليلة
المشرق ، وأنى سأراها مرة أخرى . وانتقلت من مكان إلى مكان ،
لا أرى جديدا ، أكابد فتورا يتزايد ، وقلبي ينسحق تحت الأسمى
والشجن ، وخیالى يبحث عن حليلة المشرق . في الغربية أتخلق من
جديد في صورة جديدة . تتكون في أعماقى اندفاعات جريئة لإشباع
الرنينيات وممارسة المغامرات . إني أتغلى عن حضارة وأسلم لحضارة
جديدة . أتوق إلى الحياة بعيدا عن الرقباء . الرقباء الذين يتجسدون في

الخارج والذين ينبضون في الداخل . ووجدتني عند العصر على حافة
خلاء جديد لا أدرى كيف ساقتنى إليه قدمای المتعبتان . خلاء نظيف
خال من الماشية ومن الرعاة تحف به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم
أر مثلها من قبل ، ويقوم في أعماقه قصر ذو سور محيط . يحرس مداخله
طابور من الفرسان المدججين بالسلاح . ولم يكن بالساحة إلا نفر من
الغرباء أمثالى يقلبون أعينهم في دهشة وإعجاب . كيف قام هذا القصر
بين الخيام ؟ .. إنه ولا شك قصر ملك المشرق ، وطبعاً غير مسموح
بزيارته ، وكنت ظننت أن رئيس المشرق ما هو إلا شيخ قبيلة يقيم في
خيمة تناسبه حجما وأناقـة . سألت أحد الغرباء :
— أهو قصر الملك .

فأجاب باهتمام :

— هذا ما يبدو .

الحق أنه لا يقل فخامة عن قصر الوالى في وطنى ولكنه يبدو غريبا
مقطوع الصلة بما حوله . وأخذ الجو يلطف ، ويسفر عن وجهه
الريعى ، ولكن شعورى بالتعب والجوع انفجر كالغول فرجعت ألتمس
سبيلى إلى الفندق . ووجدت فام صاحب الفندق جالسا على أريكة من
سعف النخل عند المدخل فلاقانى بابتسامة وقال :

— هل تناولت غداءك في السوق ؟

فقلت بعجلة :

— لم أعرف موقع السوق بعد والجوع ينهشني أيها الرجل الكريم ..
وجلست أمام الطبلية أمام حجرتي فجاءني فام بخبز الشعير وشريحة
من لحم البقر مقلية في الدهن مخففة بالخل وطبق مليء تمرًا وسمر جلا
وعنبا ، وسألني :

— هل آتيتك بخمر البلح .. ؟

فقلت وأنا أقبل على الطعام بنهم :

— أعوذ بالله .

فتمتم الرجل :

— الخمر موسيقى الرحلات !

أكلت حتى شبعت ، واستأذنته في الجلوس معه على الأريكة فرحب
بى جدا ، فجلسنا والمساء يتيه بقمر يوشك أن يصير بدرا . تلقيت نسائم
عذبة غريبة كل الغرابة عن قيظ النهار ، وشرعان ما زحف على الهدوء
والاسترخاء . قال فام :

— توجد خيام للضرب والرقص ما يتمناه الغريب ..

فقلت :

— فلنؤجل ذلك إلى وقته ..

— هل أعجبتك ما رأيت ؟

فقلت بفتور :

— لا شيء يستحق المشاهدة سوى القصر ولكنى فى حاجة إلى

معلومات لا يعثر عليها عادة فى الطريق ..

— صدقت فيما قلت ..

— قصر الملك آية من الآيات !

فقال باسم :

— لا يوجد ملك فى دار المشرق !

لعله قرأ الدهشة فى وجهى فواصل :

— دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن ، لكل مدينة « سيد »
هو مالكها ، يملك المراعى والماشية والرعاة ، الناس عبيده ، يخضعون
لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن ، فالقصر الذى شاهدت هو
قصر سيد العاصمة ، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على
أحد منهم ، ولكل سيد قوة مسلحة من المرتقة يجلبهم عادة من
الصحراء ..

ياله من نظام غريب ! إنه يذكرنى بالقبائل الجاهلية ولكنه مختلف ،
كما يذكرنى بملك الأرض فى وطنى ولكنه مختلف أيضا . جميعها تمثل
درجات متفاوتة من الظلم ، وعلى أى فائتنا — نحن دار الوحى — أفتطع
من سائر الخلق . وأخذت حذرى فاكفيت بالإصغاء حابسا ملاحظاتي
النقدية كما يجدر بالغريب . وسألته :

— كيف شيد هذا القصر الباهر وجميع رعيته من الرعاة البسطاء ؟

فأجاب فام فى مباهاة :

— جاء بالمهندسين والعمال من دار الحيرة ، وزوده بأجمل الأثاث والتحف التى تفخر بصنعها دار الحلبة ..

وصمت قليلا ثم قلت :

— حدثنى يا سيد فام عن دينكم ..

— أهل المشرق جميعا يعبدون القمر ، فى ليلة البدر يتجلى الإله فى تمامه فيهرعون إلى الخلاء ويحيطون بالكاهن للصلاة ، ثم يمارسون طقوسه رقصا وغناء وسكرا وغراما ..

فذهلت كثيرا ثم تساءلت :

— وبذلك يضمنون الخلود فى الجنة ؟

— لا نعرف خلودا ولا جنة ، وليس لنا إلا ليلة البدر !

فترددت قليلا ثم سألت :

— ألا يوجد طب وتعليم ؟

فقال باستهانة :

— أبناء السيد يتعلمون الفروسية ومعلومات عن الإله القمر ، وفى كل قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة ، أما الناس فيتركون للطبيعة ، ومن يصبه مرض يعزل حتى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح ..

فنظرت إليه كالمسائل فاستدرك :

— إنها سنة القمر وتعاليمه وهى تتوافق مع الحياة تماما ، لذلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضى ، نحن أسعد الشعوب يا سيد

قنديل !

قلت لنفسى إنه فقدان الوعى بلا زيادة ولا نقصان ولكنى قلت له :

— هنيئا لكم يا سيد فام !

وقضيت شطرا من الليل وأنا أدون فى دفترى تاريخ الرحلة ومشاهدتها ، وقطعت شطرا آخر مسهدا أفكر فيما صادفنى من أحوال وأفكار ، وأتأمل عذابات الإنسان فى هذه الحياة ، وأسأل هل حقا يوجد فى دار الجبل الدواء الشافى لكل داء ؟!

ومرت أيام بلا جديد سوى أننى وجدت الشجاعة على التخفف من ملابسى مكتفيا بسر وال قصير وطاقي . وذات صباح دهمتني حركة غير عادية منبثة فى الأرجاء وتهاشم حميم بين النزلاء حتى هرعت إلى فام أسأله عما هنالك فهتف :

— هذه ليلة البدر .. ليلة حضور الإله والعبادة !

فهزنى الخبر ووعدنى بمشهد سعيد حقا من يراه . وذهبت من فورى إلى السوق فالتقيت برفاقى التجار المعسكرين عند مدخله . كانوا يتفقون نهارهم فى العمل وليلهم فى الملاهى . وسرعان ما انهمكوا فى المقايضة بهمة وخبرة . ولاحظت أنهم لا يتعاملون مع الأهالى ، ولكن مع مندوبى السيد صاحب العاصمة فهو البائع والشارى وحده . أما بقية السوق فعبارة عن ممر أقيمت على جانبيه خيام لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحلى الرخيصة بمن الخرز .
(رحلة ابن مطومة)

وتناولت غذائي في الفندق ثم ذهبت إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب . وكان الناس من الرجال والنساء يزدحمون في كثافة هائلة في شكل دائرة ترك وسطها خاليا . كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النحاسية تنضج بالعرق وتنفث في الجورائحة آدمية مثيرة . وقبل المغيب ركضت سحب فحجبت القبة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المترعة بالإيمان والتحفز للمغامرة . وما إن غابت الشمس في ناحية حتى تهادى البدر صاعدا من الناحية المقابلة عظيما جليلا عذبا وإعدا فهلل الناس حتى ذعرت الطيور في الجو . مضى يصعد مرسلا ضوءه الذهبي على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنما لتقبض على الضوء السابح . ومروقت غير قصير في صمت خاشع حتى استقر القمر في كبد السماء . عند ذلك ند صوت منذر طويل عن بوق في مكان ما فانشق طريق في شمال الدائرة موسعا لقادم وقور ، طويل القامة ، مرسل اللحية منفوش الشعر ، عارى الجسد ، تقدم متوكئا على عصا طويلة حتى وقف في مركز الدائرة . تركزت الأعين على كاهن القمر ، وازداد الصمت صمتا . ولبت الرجل فترة جامدا ، ثم ترك عصاه تسقط عند قدميه ، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبعته الآلاف المؤلفة من الأذرع . وصفق بيديه فانطلق من الحناجر نشيد واحد في لحظة واحدة . انطلق بقوة وشمول فكأن الأرض والسماء وما بينهما قد شاركت فيه منتشية بسكر الغناء

ووجد العاشقين . وانسربت إلى أعماق نغمة مفعمة بالحرارة ، مميزة الوحشية والخشونة ، مجللة بدوى وأصداء ، فجاش صدرى بانفعالات ترتعش باللذة والرغبة . وتصاعدت لذروة الانفجار ، ثم أخذت في الهبوط الوئيد ، خطوة في إثر خطوة ، حتى استنامت للهدوء وغاصت في الصمت . وأنزل الكاهن ذراعيه ونظر فيما أمامه فتبعته الأذرع وتحولت إليه الأعين . والتقط بوقار عصاه فقبض عليها بيسراه وأنشأ يقول :

— ها هو الإله يتجلى بجماله وجلاله ، يحضر في ميعاده ، لا يتخلى عن عبادته ، فنعم الإله وهنيئا للعباد .

ندت عن البحر المحيط همهمة شكر ، فواصل الكاهن حديثه :
— إنه يقول لنا في دورته أن الحياة لا تعرف الدوام ، وأنها نحو المحاق تسير ، ولكنها طيبة للطيب ، وبسمة للباسم ، فلا تبدوا ثروتها في الحماقة ..

انطلقت من الحناجر زغاريد كالشهب وصفقت الأيدي على إيقاع راقص . واستمر الكاهن يقول :

— حذار من الخصام ، حذار من الشر ، الحقد يفرى الكبد ، النهم يتخم البطن ويجلب الداء ، الطمع هم وييل ، امرحوا ، والعبوا ، وانتصروا على الوسوس بالرضى ..

وفي الحال ترامت دقات طبول ، فاهتزت الخواصر راقصة ، ولبت

نداءها الأنداء والأرداف ، وتمادت الحركة منتشرة مترامية تحت ضوء القمر . رقصت الأرض وباركها البدر ، واختلط العناق بالرقص ، واندمج الجميع في غرام شامل تحت ضوء القمر . جعلت أنظر بعينين ذاهلتين ، كأننى في حلم شباب ، دمي يشتعل في عروقي ، ورغباتي تتلاطم في جنون ، وقلبي يتوق إلى الجنون . ورجعت وأنا أترنخ من شدة الانفعال ، وقبضة الشهوة تشد بعنف على أعصابى الملتهبة . ولبثت في غرفتى بالفندق ساهرا على ضوء شمعة ، أدون كلمات في دفترى ، وأفكر في المحن التى تتربص بإيمانى وتقواى ، وأتذكر عهد تربيتى الدينية والعقلية على يد الشيخ مغاغة الجبيل . واستسلمت لأفكارى في استرخاء بائس حتى احترقت أذنى بغتة صرخة استغاثة . وثبت قائما متحفزا فوجدتنى في ظلام دامس ، وسرعان ما انتهت إلى أننى كنت نائما ، بل إن النوم كان يغشى الكون كله . واستيقظت مبكرا ، وقلت وأنا أهم بمغادرة الفندق :

— هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة ؟

فقال فام :

— سي كاهن القمر ، يرحب دائما بلقاء الغرباء ، سأعد لك لقاء

معه ..

وذهبت إلى السوق فلم أجد أحدا من التجار . وأخبرنى القافى بن حمديس أنهم ذهبوا إلى القصر لإنهاء بعض الإجراءات مع حاجب

السيد . وسألنى :

— هل قررت أن ترحل مع قافلتى ؟

فأجبت بتلقائية :

— أجل ، لا شئ يستحق المشاهدة بعد ..

— صدقت فهو بلد فقير ولكن الرحلات القادمة تعد بمشاهد

ثرية ..

فقلت بصدق :

— ما يهمنى حقا هو دار الجبل !

فابتسم قائلا :

— متعك الله بأجمل ما خلق ..

واشتدت وطأة الملل والحر ، فرحت أسلى نفسى بالمشى في السوق . ورغما عنى توقفت مذهولا أمام خيمة رجل عجوز يعرض التمر في أوعية من الخوص . لمحت وراءه في عمق الخيمة الفتاة الفاتنة ، حليلة المشرق النحاسية العارية ، وهى تزق حمامة ، منطلقة بقامتها الرشيقة ونضجها الذى لم ينل منه السوء بعد . وقفت محملا ناسيا ذاتى ، أرى المائلة أمام عيني ، وأتذكر من خلالها حليلة بوجهها البدرى وعينيها السوداوين وعنقها الطويل . أرى تاريخ قلبي كله متجمعا في لحظة ومثال ، وقد التقى في بؤرته يقظة الماضى وسحر الحاضر وحلم المستقبل . أى هيام ينسكب في روحى من هذا التكوين

الفريد !. أى نداء وأى أسر ، رنوت إليها غارقا فيها ، متجاهلا أباهما العجوز ، وحيائى العتيق ، وما ألزم به نفسه من قيود الأدب . ونسيت تماما الملل والحر والخطط وأحلام الرحلة وحلم الجبل ، وحتى الآمال المدخرة من أجل الوطن . نسيت كل شيء لآنى ملكت كل شيء وطواني في صدره الرضى والقناعة والغنى . وتراجعت الفتاة حتى توازت عن ناظري فوجدت نفسى منفردا بنظرات العجوز الثابتة . باخ جنونى السعيد فسقطت في قبضة الحياة اليومية ذات الوسوس والعرق ، ومضيت أبتعد . وأدركنى صوت هرم ينادى :

— يا غريب !

فقلت لنفسي في المخذور وقعت . وتلفت متوقفا . قال برقة :

— تعال ..

فدنوت منه في حياء فسألنى :

— ألم تعجبك ابنتى عروسة ؟

فانعقد لسانى دهشة ولم أجب فعاد سأل :

— ألم تعجبك عروسة ؟ .. لا مثيل لها في المشرق !

تمتمت بارتباك :

— معذرة ..

فقال بفخار :

— ما رآها شاب إلا أحبها ..

فقلت معذرا وأنا أظنه يسخر منى :

— ما قصدت سوءا قط ..

فقال العجوز بحدة :

— لا أفهم لغة الغرباء ، أجبنى هل أعجبتك ؟

فترددت مليا ثم قلت :

— إنها تستحق الإعجاب كله .

— أجبنى بصراحة هل أعجبتك ؟

فحنيت رأسى معترفا فقال :

— ادخل ..

ترددت فتناول يدي وجذبنى إلى الداخل . ونادى عروسة فجاءت

بجسمها العارى وجعلت ترنوا إلى ، حتى سألتها :

— ما رأيك في هذا الغريب المغرم بك ؟

فأجابت بلا حياء أو تلثم :

— إنه مطلوب يا أبى ..

فضحك العجوز قائلا :

— أخيرا نورك القمر !

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدل علينا ستارا . وجدتنى منفردا بها في أمان كما بدا ولكن في حيرة أفسدت على السعادة المتاحة الشاملة . أيعنى هذا الزواج في هذه الدار ؟ أيعنى إباحية كالتى شهدتها تمارس تحت

ضوء القمر ؟. وراحت تنظر إلى وتتنظر ، وحبي يهفو إليها من تحت
غشاء القلق . وسألها :

— ما معنى هذا يا عروسة ؟

سألتني :

— ما اسمك ومن أى البلاد أنت ؟

— اسمى قنديل ، ومن دار الإسلام ..

— عم تسأل ؟

فسألها وأنا أشير إلى الخارج :

— أهو أبوك ؟

— نعم .

— أى علاقة بيننا الآن ؟

— عرف أبى أنك تعجبني فدفعتك إلى ؟

— هذا هو المتبع هنا ؟

— طبعاً .

— وماذا بعد ذلك ؟

— لا أدري ، لكن لماذا تغطي وسطك بهذه الوزرة ؟

وراحت تنزعها بازدراء ، ووقفنا نترامق ، وفجأة ركعت طارحاً

على غائقي كل هم . وضممت ساقها إلى صدرى . وعند الظهيرة قال

لى الأب :

— ادعنا إلى الغداء ..

فذهبت وجئت بلحم وفاكهة وتناولنا طعامنا كأُسرة واحدة .
وعقب استراحة قصيرة قال العجوز :

— اذهب مصحوباً بالسلامة ..

فسألته بقلق :

— هل آتى غدا ؟

فقال دون مبالة :

— هذا شأنها وشأنك ..

رجعت إلى الفندق فاقد القلب والعقل . تلخصت الحياة كلها فى
عروسة . والتمست عند فام مزيداً من الضوء فقال :

— هذه العلاقة تمارس هنا بلا قيود ، ما إن تعجب فتاة بفتى حتى
تدعوه على مرأى ومسمع من أهلها ، وتنبذه إذا انصرفت عنه نفسها
محتفظة بالذرية التى تنسب إليها ..

وكرهت ذلك من صنمى قلبى غير أن فام قطع على أنكارى قائلاً :

— سنذهب عصراً إلى كاهن القمر وهو يرحب بك ..

كان جماسى للقاء قد فتر شيئاً ما ولكنى استعنت عليه بالعزيمة حتى
أنجز كتاب رحلتى على أكمل وجه . واصططحبني فام عصراً إلى خيمة
الكاهن التى قامت فى بقعة خالية ، وكان يجلس متربعا على فروة أمام
مدخلها فرمقنى متمعنا وقال :

— اجلس .. أهلا بك ..

وفارقنا فام فقال الكاهن :

— أخبرني فام أنك تدعى قنديل محمد العنابي وأنتك من دار الإسلام ؟

فقلت متوددا :

— هذا حق ..

فقال وهو ينفذ بعينه في صدرى :

— واضح أنك تجرى وراء المعلومات شأن الرحالة الغريب !

فقلت برقة :

— عند الحكيم توجد المعانى التى تخفى على المشاهد العابر ..

فقال بهدوء :

— كن صريحا ولا خوف عليك فلن تخرج المعانى إلا لمن يطرق الباب

بصدق ..

تفكرت مليا ثم قلت بادئا بالموضوع الذى يستغرقنى :

— أعجب ما صادفتنى فى المشرق علاقة الرجل بالمرأة ..

فابتسم قائلا :

— نصف المصائب فى البلدان إن لم يكن كلها تجيء من القيود المكبلة

للشهوة ، فإذا شبت أمكن أن تصير الحياة لها ورضى !

فقلت بخذر :

— فى دارنا يأمرنا الله بغير ذلك !

— عرفت أشياء عن داركم ، عندكم الزواج وكثيرا ما يتمخض عن مأس مؤسفة ، والناجح منه يستمر بفضل الصبر ، كلا يا صاحبي ، حياتنا أبسط وأسعد .

فتساءلت بقلق :

— قد تزهد المرأة عندكم فى رجلها وهو ما زال مقيما على حياها ؟

— النساء كثيرات ، والسلو يسير ، كل متاعبكم تجيء من الحرمان ..

— حتى الحيوان يغار على شريكته !

فابتسم قائلا :

— يجب أن نكون أفضل من الحيوان ..

فتمتعت وأنا أخفى تقزى :

— لا سبيل إلى التلاقى ..

— إني مسلم بهذا ، ولكن عليك أن تفهمنا جيدا ، إننا نشد البساطة واللعب ، إلهننا لا يتدخل فى شئوننا ، إنه يقول لنا كلمة واحدة وهى أنه لا شيء يدوم فى الحياة وأنها إلى محاق تسير ، بذلك أشار إلى الطريق فى صمت ، أن نجعل من حياتنا لعبا ورضى ..

فقلت متشجعا بحرارة الحديث :

— لقد سمعت موعظتك ، ووجدتها لا تنطبق على السيد المالك لكل

شيء ..

فهز رأسه في أسى وقال :

— كثيرا ما يحوم الغرباء حول ذلك ، ولكن السيد هو الذى يدفع
عن الدار هجمات البدو . وهو — وبقية السادة — أملنا في التصدى
لأطماع دار مثل دار الحيرة ، أجل الحرب تهددنا ، والسادة هم الذين
يعدون أنفسهم للدفاع ، وهم أيضا الذين يتصدون لأى عدوان في
الداخل فيبيثون للعبيد حياة آمنة ، هل تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا
كل شيء لينفقوا على السلاح والجنود المرتزقة ؟
فقلت متحديا :

— يوجد نظام أفضل يوفر للناس كافة حقوقهم ويعدهم للدفاع عن
دارهم عند الحاجة !

فمط الرجل شفثيه مضمومتين وقال بحسم :

— الكائنات في دارنا أنواع : نبات ، وحيوان ، وعبيد ، وسادة ،
ولكل نوع أصل يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى ..
فقلت وأنا في غاية الاستياء :

— الناس عندنا إخوة من أب واحد وأم واحدة لا فرق في ذلك بين
الحاكم وأقل الخلق شأننا ..

فلوح بيده استهانة وقال :

— لست أول مسلم أحادثه ، إني أعرف عنكم أشياء وأشياء ،

ما قلت هو حقا شعاركم ولكن هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر في
المعاملة بين الناس ؟

فقلت بحرارة وقد تلقيت طعنة نجلاء :

— إنه ليس شعارا ولكنه دين ..

فقال ساخرا :

— ديننا لا يدعى ما لا يستطيع تطبيقه ..

فقلت وقد شدتني الصراحة إلى أعماقها :

— إنك رجل حكيم ، إني أعجب كيف تعبد القمر وتتصور أنه
إله !؟

فقال بجدية وحدة لأول مرة :

— إننا نراه ونفهم لغته . هل ترون إلهكم ؟

— إنه فوق العقل والجواس ..

فقال باسما :

— إذن فهو لا شيء !

كدت ألطمه ولكنى كظمت حنقى واستغفرت ربى ، وقلت :

— إني أسأل الله لك الهداية .

فقال باسما :

— وإني أسأل إلهى لك الهداية .

وصافحته مودعا ، ورجعت إلى الفندق ثائر الأعصاب موجع

القلب . وعاهدت نفسها أن أسمع — في رحلتى — كثيرا وأن أناقش قليلا أو لا أناقش على الإطلاق . وقلت لنفسى متحسرا :
— ديننا عظيم وحياتنا وثنية !

ومع اليوم التالى ذهبت مبكرا إلى السوق ، إلى خيمة عروسة ، رحب بى العجوز باسمها وقالت عروسة بدلال :
— تأخرت حتى قلت إنه هرب ..

ولثمت ثغرها فهمت بالذهاب إلى ركننا المستور ولكنى أوقفها وقلت لأبيها :

— يا والدى أريد أن أتزوج من عروسة .

فقهقه العجوز فاضحا فاه المثرم وقال :

— كما تفعلون فى بلادكم ؟

— أجل ، وفى تلك الحال سأصطحبها معى فى رحلتى حتى نرجع معا إلى وطنى ..

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل :

— ماذا ترين يا عروسة .

فقالت عروسة بسرور :

— تحت شرط أن يتعهد بإرجاعى إلى المشرق إذا راق لى ذلك ..
فقلت بلا تردد :

— لك هذا يا عروسة !

— ولكنى لا أملك حق الموافقة النهائية ، فنحن جميعا عبيد السيد وهو مالكننا الشرعى ، فاذهب إلى القصر واعرض على الحاجب شراء عروسة ..

اعترضتنى هذه العقبة التى لم ترد لى بحسبان ولكنى لم أجد بدا من تذليلها . وأمضيت نصف النهار مع عروسة فى سعادة وراحة عميقتين . ولما رجعت إلى الفندق أفضيت إلى فام بما يشغلنى فوعده باصطحابى إلى الحاجب . هكذا قدر لى أن أعبر باب القصر ، وأن أشهد جانبا من حديقته الضاحكة بأزهارها ونخيلها وأنا فى طريقى إلى ركن الحاجب .. كان يجلس فى صدر حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد ، مفروشة بالوسائد والمساند الناعمة . كان فوق الستين ، بدينا ، ثقيل النظرة ، مغلفا بالعزلة والكبرياء . لثم فام يده وعرض مطلبى ولكن الحاجب لوح بيده رافضا ، وقال :

— منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد .

ونظر إلى وقال :

— انضم إلينا إذا شئت كما فعل فام فتتدرج فى جملة العبيد وتتمتع بالأمن والرضى والجارية معا ..

فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبة والشجن . وقال لى فام ونحن ماضون نحو الفندق :

— استمتع بفتاتك حتى تشبع ، وسرعان ما تشبع !

فضاعف من أحزاني وهو لا يدري . وواصل حديثه قائلا :
— لم يكن الوقت مناسباً لإنجاح مسعاك فثمة أنباء عن تحفز الخيرة
لإعلان الحرب علينا ..

فسألته بقلق :

— وما الأسباب وراء ذلك ؟

فضحك بمرارة قائلا :

— الطمع في كنوز السادة والمراعى الغنية ، ولن تعوزهم علة يعتلون

..

وسأوري القتل فراد من متاعب قلبي . وافترقنا عند أقرب نقطة إلى
السوق فذهبت إلى خيمة عروسة من فوري . واستقبلني العجوز
متنحضا وجهي فقال :

— خاب مسعاك والقمر ..

وضحكت عروسة ضحكة لا معنى لها فرددت بأسف :

— خاب مسعاى .

فقال العجوز ضاحكا وهو يومئ إلى عروسة :

— إنها تنتظرك !

فقلت بأسى :

— يعز على أن تكون علاقتى بها عابرة .

فقال العجوز ساخرًا :

— كل علاقة عابرة يا غريب .

فقلت بحرارة :

— تمنيت أن تكون دائمة .

فقال مقهقهة :

— يالك من رحالة أناى ..

ثم وهو يواصل القهقهة :

— حذار من التعقيدات فنحن قوم بسطاء ونحب البساطة !

— كأنكم لا تعرفون الحب !

— نعرف أنه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام فى الأحوال

الجنونية . فماذا تريد أكثر من ذلك ؟

سألته جادا :

— ماذا تقترح لجنون مثلى ؟

— استأجرها لمدة تتجدد حتى تنتهى !

— هل أرجع فى ذلك إلى الحاجب أيضا ؟

— كلا ، هذا حقى بصفتى والدها ، أى مدة تريد ؟

— أطول مدة ممكنة .

— استأجرها شهرا بشهر .

— ليكن .

— ولكن الاتفاق ينتهى حال ترغب هى فى ذلك .

فحنيت رأسي موافقا فقال :

— الشهر بثلاثة دنائير ..

تم الاتفاق ومضيت بعروسة إلى حجرقي بالفندق . صمت على
ألا أفسد سعادتي ، وأن أعتبر الساعة الراهنة هي العمر كله . ولكنني
قلت لها برجاء :

— دعيني أستر جمال جسدك .

فقلت بانزعاج :

— لا تجعل مني أضحوكة .

فتراجعت مسلما بكل شيء . وتراءت لي وهما سعيدا ينذر بالزوال
فلذت بها بقلب يطارده شبح الفراق والحزن . ولكن الحياة طابت مع
الفاتنة الرائعة ، ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب .
وكانت تحب الانطلاق في المراعى والتجول في السوق فسرنا معا في
حيور ، ورآني القاني بن حمديس فأقبل نحوي قائلا :

— نحن راحلون مع الفجر .

فقلت في حياء :

— ولكنني باق .

فقال ضاحكا :

— ستجد قافلة كل عشرة أيام ..

إني مستغرق بالحب ولا شأن لي بالزمن . لا أهمية الآن للرحلة

ولا للمهمة ، ولو بقيت لآخر العمر . وها هي بشائر الأمومة تهل
بأفراحها القلبية وأسقامها الجسدية فأستعيز بها من تقلبات القلوب
وجوامح الأهواء ، وأطمح إلى حياة مستقرة ولو ربطتني في النهاية
بالمشرق ، وغيرت بشرقي وأحلامي . وقلت ساخرا من نفسي :

— يبدو أنني خلقت للحب لا للرحلات !

ودار الزمان فجاءت ليلة البدر وهرع العباد إلى ساحة العبادة . ذهبنا
إلى الساحة زوجين حتى انحشرونا في الزحام . هناك قالت لي بجدية :

— هذه ليلة الإله ينفصل فيها القرين عن قرينه ..

وفرت من بين يدي فذابت في الجموع . لبثت وحيدا مضطربا
غاضبا مسلوب الإرادة والسرور . وتتابع الطقوس وأنا أتساءل عما
تفعله مع آخر غريب . ولما جاءت ساعة العناق تعرضت لي امرأة في
الأربعين على شيء من الجمال وفتحت لي ذراعيها ، رأيت فيما يقع لي
ما يقع مع عروسة في مكان ما . ودار السقاة بخمر البلح فشربت قدحا ،
فغبت عن وعيي واندججت في صلاة المشرق . وعند الفجر تكومت
مقرفصا عند مدخل الفندق حتى وافتنى عروسة وهي تترنح . نهضت
إليها واجما فتأبطت ذراعي إلى حجرتنا وهي تسألني :

— أعجبتك المرأة ؟

فقلت بمرارة :

— لقد نجسنا علاقة مقدسة يا عروسة ..

فقلت بانزعاج :

— إنك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لي في ذلك .

ثم أقبلت عليّ باسمه وهى تقول :

— ما زلت أحبك ، ما زلت رجلى الوحيد ..

أعترف بأن حبى لم يضعف ، وبأن الخوف من الفراق كان يلهيه .
باتت سعادتي وشقاى . وحرقتنى الصيف فهو جحيم ، وفيه تنمحق
الخضرة وتقتات الماشية على المخزون المجفف من الأعشاب ، ويجىء
الخريف فتهدا النيران قليلا ويسقط الرذاذ من حين لحن ، ثم يقبل الشتاء
بحوه اللطيف المعتدل وأمطار الغزيرة فتحيا الأرض وتطرب الماشية
ويظل العراة عراة . وتنجب عروسة وليدها الأول فيسمى « رام ابن
عروسة » كأنما أنجبته وحدها ولا شأن لي به . ويقول لي أبوها :

— ها أنت تدخل فى عامك الثانى وهى ما زالت تحبك ، أنت ساحر
يا غريب !!

ويزغت بشائر أمومة جديدة فجاء عام ابن عروسة ، وتبعه بعد عام
لام ابن عروسة وحملت للمرة الرابعة حتى اشتهرت علاقتنا بين القوم
بالشدوذ ، وقيل لى أشدها إلى بقوة السحر الذى لقتته فى دار الإسلام .
وانسقت وأنا لا أدرى إلى تربية رام على مبادئ الإسلام . وكان ينمو
أقوى وأسرع من أقرانه لما أوفره له من عناية وغذاء وقد أعطى مثالا لما
كان ينبغى أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبودية . كفرت

بتلقينه مبادئ الإسلام عن إهمالى الاضطرابى لعقيدتى احتراماً للبلد
الذى يؤوينى ، غير أن عروسة لم تحف استيائها وقالت لى مجدية :

— إنك تنشئه على الكفر وتعدده لحياة تعيسة فى بلده ..

فقلت برقة :

— إنى أنقذ روحه كما تمنيت أن أنقذ زوحك ذات يوم ..

فقلت بصرامة :

— لن أسمح لك بهذا أبدا ..

تبدت صارمة عنيدة حتى جزعت خوفا على حبى . وأفضت إلى
أبيها يهيمومها ونحن فى زيارة له فهاله الأمر وصاح بى :

— ابعد عن ابنتى يا غريب ..

وخيل إلى أن النبأ تسرب إلى الخارج ، رغم تكتمناله ، وأن نظرات
الغضب تحرقنى فى الطريق . وطار دنى القلق حتى قلت لنفسى :

— البناء مهدد بالانهيار ..

وصدق حدسى فجاءنى فام صاحب الفندق فأخذنى من حجرى إلى
حجرته حيث وجدت ضابط شرطة فى انتظارى . سألتنى :

— أنت قنديل محمد العنابى ؟

فأجبت بريق جاف :

— نعم .

فقال بجفاء :

— ثبت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر ..
فسأله بجزع :

— كيف ثبت هذا ؟

— نحن أدرى بواجبنا ، اسمع فلم أحضر للمناقشة ، صدر أمر السيد
بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها ، وأن ترحل عن المشرق مع أول
قافلة ..

هممت بالكلام ولكنه قال بغلظة :

— لم أحضر للكلام ، أنت محجوز معي حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد
إلى أبيها ، وستظل تحت الحراسة حتى تلحق بالقافلة ..

فقلت بضراعة :

— دعني أودعهم ..

فقال بخشونة :

— لقد وقع عليك جزاء فكن شكورا ..

ورجعت إلى حجرتي بعد ساعة — التي تحولت إلى السجن —
فوجدتها خالية من الأم والأولاد والحب والأمل . لحظة كئيبة تنداح في
أنساق النفس فتتكشف الحياة عن حلم أو وهم . ولحق بي فام فرمقني
بعطف وقال :

— تحمل كما يجدر برجل رحالة !

فقلت بصوت متهدج :

— حزني شديد جدا يا فام ..

تفرس في وجهي قليلا ثم قال :

— أطلق دموعك ، الرجال سيكون أحيانا ..

فقلت وأنا أشد على محابس دموعي :

— تبخرت مسرات الحياة ..

— إنها تتجدد وتجيء أيضا بالعزاء ..

وربت منكبي ثم قال :

— تعلم أن الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة ..

من بابها الكبير .

أمام المدخل ، على ضوء المشاعل ، وقف مدير الجمرك ، وكان على ما بدا من العسكريين بخوذته ودرعه وسيفه ووزرته القصيرة . قال بصوت قوى أسمع القافلة كلها :

— أهلا بكم في الحيرة عاصمة دار الحيرة ، ستجدون رجال الشرطة في كل مكان فتسألونهم عما تريدون ، وتتبعون إرشاداتهم بدقة تجعل من رحلتكم ذكرى طيبة لا يشوبها ما ينغص .

فقلت في نفسي « إنه ترخيب وإنذار » . واخترقنا الباب ثم انقسمنا فذهب التجار إلى فندق السوق ، ومضى بي دليل إلى فندق الغرباء . اخترقنا ظلاما شديدا ، تسبح فيه مشاعل رجال الشرطة هنا وهناك كالنجوم . واقتربنا من الفندق فرأينا مدخله الكبير على ضوء المشاعل ، وشع نور من بعض النوافذ . إنه بناء كبير مشيد بالأحجار ولكنه مكون من دور واحد . وسرعان ما ذهبت وراء حقائبي المحمولة إلى حجرتي . حجرة متوسطة ، بها فراش يعلو عن الأرض ذراعا ، ذو غطاء أرجواني يناسب جو الخريف المعتدل ، وبه صوان ملابس ، وأريكة صغيرة ، وثمة شمعدان في كوة في الوسط تشتعل به شمعة غليظة متوسطة الطول ، أما الأرض فمغطاة بحصيرة مزركشة . توجد حضارة ولا شك ، وشتان ما بينها وبين المشرق . وما كدت أخلع ملابس السفر وألبس قميص النوم حتى جاءني رجل متوسط القامة أسمر في الخمسين يرفل في

دار الحياة

تحركت القافلة في ظلمة الفجر في ظلمة الفجر المبشرة . شد قلبي إلى الوراء وغص حلقي بالحزن والدموع ، وتجمعت النجوم فوقنا تنظر إلينا وتنظر إليها وانعدم العزاء . كما فارقت وطني منذ حوالي خمسة أعوام محبطا بخيانة الأم والحبيبة والولة . انقلبت رحالة مرة أخرى أفكر بالبلدان والدفاتر ولكن أين القلب وأين العقل أين ؟ وقلت إن هذه النجوم أقرب إلي من عروسة والأبناء . وستظل القوافل تسير حاملة الأموال والآمال فمن يحمل الأحزان ؟ . ويتلاشى الظلام ويشرق النور وتبدى الصحراء بلا حدود كأنها الفناء . ترى ماذا يقولون عني في الوطن ولم لم أصادف مرة أخرى القاني بن حمديس . وقلت لنفسي إن خير ما تفعل يا رحالة أن ترى وتسمع وتسجل وأن تتحاشى التجارب . وأن تعاود أحلامك عن دار الجبل . وأن تحمل الدواء الشافي لجراح الوطن . وقطعنا المسافة ما بين المشرق والحيرة في شهر ثم عسكرنا على كنب من واحة الزمام لندخل دار الحيرة عند منتصف الليل . وواصلنا السير مع الليل حتى تبدى لنا سور الدار تحت ضوء النجوم ومضيئنا نقرب

عبادة خفيفة . قال :

— هام .. صاحب الفندق ..

فصافحته قائلا :

— قنديل محمد العنابي ، رحالة ..

— أتريد عشاء ؟

— تناولته في الطريق .

فابتسم وقال :

— الليلة بياتا وطعاما بدينار والدفع مقدما ..

قدرت أن إقامتي ستمتد عشرة أيام فأديت إليه عشرة دنانير
فسألني :

— من أى البلاد ؟

— دار الإسلام .

فقال محذرا :

— لا يمارس في الحيرة إلا دين الحيرة ..

فذكرني بمأساتي ولكنى سألته :

— وما دين الحيرة يا سيد هام ؟

— إلها هو الملك .

وحياي وانصرف . نفخت الشمعة فأطفأتها وآويت إلى الفراش
وأنا أقول لنفسى ، الملك بعد القمر ، ياله من ضلال . ولكن رؤيدك ،

ألا يتصرف الوالى في وطنك كأنه إله ؟! استمتع بالرقاد بعد متاعب
السفر ، ولذ بالنوم من متاعب الحياة كلها . استيقظت مبكرا بخلاف
ظنى وفي الحال أدركت أن جلبة شديدة تهب من الطريق هى التى
انترعتنى من نومى . وفتحت نافذة فرأيت في ضوء البكور جيشا
لجيا ، فرسانا ورجالة ، يتقدم على دقات طبل نحو باب المدينة . جعلت
أشاهد وأتساءل . ولما خلا الطريق طلبت الفطور فجاءتنى صينية من
نحاس عليها طعام مكون من حليب وزبد وجبن وعيش وعنقود من
العنب . هممت أن أسأل الخادم عن مسيرة الجيش ولكن الحذر
أمسكنى . وارتديت ملابسى للخروج فوجدت مدخل الفندق مكتظا
بالناس وهم يتجاورون :

— إنها الحرب كما توقع كثيرون .

— ضد المشرق ولا شك ..

— لتحرير شعب من خمسة من الطغاة ..

— سيكون تاريخا جديدا للمشرق تحت حكم إله عادل ..

انقبض صدرى وطارأت أفكارى لتحوم حول عروسة وأبنائها .
كيف يكون مصيرهم ؟. ليست الرغبة في تحرير أهل المشرق هى
ما دفعت إلى الحرب ولكنه الطمع في المراعى وكنوز السادة الخمسة .
وسوف يقع قهر شديد لتحويل الناس من عبادة القمر لعبادة الملك .
سوف تزهق أرواح وتهتك أعراض وتتشرد الألوف . ألا يحدث ذلك

في حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو للتوحيد والأخوة ١٩.

وجاءني هام صاحب الفندق قبل أن أعادته وقال لي :

— تقرر رفع الأجرة نصف دينار لمواجهة أعباء الحرب .

فأديتها صاغرا فقال باسمها :

— ليس كثيرا في سبيل تحرير العبيد !

فلعنته في سري كما لعنت الشعارات الكاذبة جميعا . ومن شدة قلقي

ذهبت إلى فندق السوق فوجدت رفاقي التجار مجتمعين في البهو .

جالستهم متابعيا أحاديثهم :

— أيام الحرب غير مأمونة ..

— قد تضيع أموالنا لآخر درهم .

— ولكن الأسعار سترتفع أيضا .

— والمكوس الإضافية ؟

وقال صاحب القافلة :

— الحروب لا تزول أبدا ، ونفعها للتجارة أكثر من ضررها ،

ولا أظن أن هذه الحرب ستطول فالخيرة أقوى من المشرق

بما لا يقاس ، في أقل من أسبوع سينتهي كل شيء .. تركزت

أفكاري على أسرتي المفقودة . قررت البقاء في الخيرة قريبا من المشرق .

ورأودني أمل جديد أنه بعد ضم المشرق إلى الخيرة أستطيع أن أسافر إلى

المشرق لعل الله يجمعني بأسرتي رحمة منه وكرما . ولعل أستطيع أن

أتزوج منها وأمضي بها معي في رحلتى إلى وطن جديد ودين جديد .

طابت حياتي بهذا الأمل الجديد فانشرح صدري للتجول والرحلة ،

واكتشاف الخيرة عاصمة دار الخيرة . سرت بلا توقف وبلا كلل .

أنظر وأسمع وأسجل في الذاكرة . إنها مدينة كإحدى مدن بلادى . فيها

ميادين وحدائق ، وشوارع وحوارى ، وعمائر وبيوت ومدارس

ومستشفيات ، عامرة بالخلق ، وفي كل موقع شرطى ، وملاهى الرقص

والغناء موفورة . وسوقها كبيرة مترامية متعددة الخوانيت ، وبها سلع

من الخيرة ومن جميع البلدان . وبعث في جو الخريف المعتدل نشاطا غير

محدود فتواصلت أيام الاكتشاف والمشاهدة والتسجيل . ومن آن لآن

أزور فندق السوق فألقى الرفاق أو أجالس صاحب القافلة ، وقد قال لي

مرة :

— جو الخيرة معتدل بصفة عامة ، صيفه محتمل ، وشتاؤه مقبول ..

ولما حدثته عن كثرة رجال الشرطة قال لي :

— الأمن مستتب ولكنهم يحمون الدولة ..

الحق أنى طفت بأحياء الأغنياء وهى جميلة هادئة ، قصورها

متاحف ، وسكانها يتحركون في هودج ، كما زرت أحياء الفقراء

بأكواخها وخرائبها ومناخها الكئيب وأناسها التعساء وقلت في ذلك

لصاحب القافلة :

— يزعمون أن الحرب قامت من أجل تحرير العبيد في المشرق ، هلا

حرروا عبيد الحيرة ؟

فتساءل الرجل هامسا :

— وماذا تقول في بلادنا ، بلاد الوحي ١٩ ؟

فقلت بحزن :

— ما من سيئة عثرت بها في رحلتى إلا وذكرتنى ببلادى الحزينة ..

فقال لى الرجل وهو يمضى عنى :

— عليك أن تشاهد قصر الملك الإله ..

ولم يغب عنى ذلك ، وقد وجدته قائما منيفا شامخا فى عزلة وسط فراغ مسور بالنخيل والحراس . إنه مثل قصر الوالى فى وطنى أو أفخم . وثكنات الحرس تقوم فى جانب ، ومعبد الملك الإله يقوم فى جانب آخر . وشد بصرى حقل من الأعمدة مسور بسياج من حديد فاقتربت منه حتى رأيت أن رءوسا آدمية منفصلة عن أجسادها تتدلى من هامات الأعمدة . ارتعدت لهول المنظر . ولا أنكر أننى رأيت صورة مصغرة منه فى صباى فى وطنى . إنهم يعرضون الرءوس للزجر والتأديب والعظة . واقتربت من حارس وسألته :

— هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هؤلاء القتلى ؟

فأجابنى بجفاء :

— التمرد على الملك الإله !

فذهبت مسديا إليه شكرى ، وأنا على يقين من أنهم شهداء للعدل

والحرية قياسا على ما يقع عادة فى بلاد الوحي . إنه عالم غريب حافل بالجنون ، وستكون معجزة حقا إذا وجدت الدواء الشافى فى دار الجبل . وسألت هام صاحب الفندق مساء :

— ماذا فى دار الحيرة من مواقع تستحق المشاهدة خارج العاصمة ؟

فقال الرجل بثقة :

— عدا العاصمة لا يوجد إلا الريف وليس به ما يسر الرحالة ..

وعكفت على تدوين المشاهد فأراحتنى ذلك من التفكير فى عروسة وأبنائها . وسهرت ليلة فى ملهى فهالتنى عريضة السكارى وفسق الفاسقين مما يعف قلمى عن الخوض فيه . وعند مرورى بفندق السوق قال لى صاحب القافلة :

— نحن سائرون فجر الغد فهل تجيء معنا ؟

فأجبتهم واجما :

— كلا ، إنى باق بعض الوقت ..

جذبتنى عروسة للبقاء ولكن آلتنى ما ينتظرنى من وحدة مخيفة . واستيقظت عند الفجر فتخيلت القافلة وهى تتحرك على صوت الحادى . نداء كالقدر يدعونى للبقاء وأمل فى السعادة لا يريد أن يخبو . ولم أشأ أن أبدد وقتى سدى فنشطت لتحصيل المعلومات التى لا تجود بها المشاهدة . ولم أجد عند صاحب الفندق فراغا للحديث كالذى وجدته فى المشرق ، فسألته أن يدلنى على حكيم هذه الدار إن سمح لى

بلقاء . قال هام :

— في وسعى أن أعد لك لقاء كما حدث مع غيرك ..

وذهبت في الميعاد عصرا إلى بيت الحكيم ديزنج . بيت جميل تكتنفه حديقة ملأى بالأزهار وأشجار الفاكهة . استقبلني بابتسامة لطيفة وأجلستني على أريكة إلى جانبه . كان في الخمسين قوى الجسم واضح القسمات تتواءم قلنسوته البيضاء مع عباءته البيضاء . طلب مني أن أقدم نفسي ففعلت ذاكرة اسمي ومهمتي ووطني . قال :

— بلادكم عظيمة أيضا ، خبرني عما أعجبك في دارنا ؟

فقلت مداريا ذاتي :

— أشياء لا تعد ولا تحصى .. حضارة وجمال . قوة ونظام .. فسأل في مباهاة :

— وما رأيك في حرب نعلنها مضحين بأبنائنا من أجل تحرير دار غريبة ؟

— هذا ما لم تسمع بمثله من قبل ..

فقال بيقين :

— نحن نقدم للناس مثالا للوطن السعيد الشريف ..

فأحسيت رأسي موافقا فقال :

— لعلك تسأل عن سر ذلك كله ؟ لقد دلوك عليّ باعتباري حكيم هذا البلد ، والحق أنني ما أنا إلا تلميذ ، مولانا هو الحكيم وهو الإله

وهو مصدر كل حكمة وخير ، إنه يجلس على العرش ، ثم ينزل في جناح صائما حتى يشع منه النور فيعرف أن الإله قد حل فيه ، وأنه صار الإله المعبود ، عند ذاك يمارس عمله ، يرى كل شيء بعين الإله ، فتلقى منه الحكمة الأبدية في كل شيء ، ولا نطالب بعد ذلك إلا بالإيمان والطاعة ..

تابعته باهتمام وأنا أستغفر ربي في سري ، أما هو فواصل حديثه قائلا :

— فهو ينشئ الجيش ويختار له قواده فيكون جيش النصر ، ويعين من أسرته المقدسة الحكام ، وينتخب من الصفوة قادة للعمل في الأرض والمصانع ، أما بقية الناس فلا قداسة بهم ، ولا مواهب ، يعملون في الأشغال اليدوية ، ونوفر لهم اللقمة ، يلي هؤلاء الحيوانات ، يلي الحيوانات النبات والجماد ، نظام محكم كامل يضع كل فرد في موضعه محققا بذلك العدل الأكمل ..

وسكت مليا وهو ينظر إليّ ثم قال :

— لذلك فنحن لنا أكثر من فلسفة ، نخطب الصفوة بما يقوى في نفوسهم القوة والهيمنة والنمو ، ونستعين على ذلك بتوفير التعليم لهم والطب ، أما الآخرون فنقوى بهم مواهب الطاعة والانقياد والقناعة ، ونهديهم إلى الكثر الروحي المدفون في أعماق كل منهم ، والذي يهيئ لهم بالصبر والاجتهاد السلام ، بهذه الفلسفة المزوجة تتحقق السعادة (رحلة ابن فطومة)

للجميع ، كل بحسب استعداداه وما أعد له ، فنحن أسعد أهل الأرض
طرا ..

تفكرت فيما يقال وفيما لا يقال ثم سألته :

— من يملك الأرض والمصانع ؟

— الإله ، هو الخالق وهو الملك ..

— وعلاقة الصفوة بها ؟

— هم ملاكها بالنيابة ، والريع يقسم مناصفة بينهم وبين الإله .

فوثبت خطوة جديدة متسائلا :

— كيف تنفق أموال الإله ؟

فضحك لأول مرة وقال :

— وهل يسأل إله عما يفعل ؟!

— إذن من يتفق على المدارس والمستشفيات ؟

— الصفوة باعتبارها وقفا عليهم وعلى أبنائهم .

ثم متسائلا في زهو :

— أليس هذا هو الكمال نفسه ؟!

فقلت مداريا ما في نفسي :

— هو ما يقال عادة عن دار الجبل .

فهتف بقوة :

— دار الخيرة هي دار الجبل .

فقلت بوضوح :

— صدقت أيها الحكيم ديزنج !

فقال بثقة ويقين :

— أن تعيش بإرشاد الإله وتوجيهه هو أقصى ما يطمح إليه الإنسان
من عدل وسعادة .

فقلت متسللا :

— لذلك يشتد عجبى من أولئك المتمردين الذين رأيت رءوسهم
المعلقة !

فهتف بغضب :

— لا تخلو طبيعة البشر من انحراف وسوء ولكنهم قلة على أى حال .
وفي نهاية المقابلة قدم لى تفاحة وقدحا من حليب فرجعت إلى وحدتى
فى الفندق متفكرا مغتما . وتذكرت أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى فسألته
على البعد :

— أيهما أسوأ يا مولاي ، من يدعى الألوهية عن جهل أم من يطوع
القرآن لخدمة أغراضه الشخصية ؟!

وكابدت الملالة أياما ثم بلغتني أنباء انتشرت مع نسائم الخريف تؤكد
أن جيش الخيرة قد انتصر وحقق أهدافه ، وأن دار المشرق أصبحت
الإقليم الجنوبي لدار الخيرة . وتدفق الفقراء إلى الطرقات يعلنون فرحتهم
بالنصر كأنهم هم الذين سيجنون ثمرته . وتساءلت فى قلق بالغ :

— ترى كيف أنت يا عروسة ؟.. وكيف أنتم يا أبناءى ؟!

وبكرت يوم عودة الجيش المنتصر فاتخذت موقفى غير بعيد من الفندق ، فى الطريق الملكى الممتد من مدخل الحيرة حتى سراى الملك . كان الزحام شديدا على الجانبين حتى خيل إلى أنه لم يبق من الأهالى أحد فى بيته أو مكان عمله . وعند الضحا ترامت إلينا دقائق الطبول ، وتقدم الموكب فرسان يحملون فى سنان رماحهم خمسة رعوس هى رعوس السادة الذين كانوا يملكون مدن المشرق . هكذا رأيت لأول مرة السيد الذى ذهب يوما إلى حاجبه لمساومته على شراء عروسة . وتبع ذلك طابور طويل من أسرى الحرب يسرون عرايا مكبلين الأيدي بين صفين من الحراس . وتتابع فرق الجيش من فرسان ورجالة فى جو عاصف بالهتاف الحار . يوم نصر وأفراح . أما المآسى الدامية التى خلفها وراءه فلا يعلمها إلا الله . حياة بشرية غريبة يمكن تلخيصها فى كلمتين ، دماء وزغاريد . وفى ذيل الجيش سارت السبايا من النساء بين ذراعين من الحراس . خفق قلبى خفقة شديدة وتمثلت عروسة لعينى كما رأيته أول مرة ، بل كما رأيته وهى تقود أباه فى الحارة التى شهدت مولدى ! . وزاغ بصرى بين الوجوه المنكسرة والأجساد العارية . وصدقت لهفتى فاستقرت عيناى على وجه عروسة ! . هى عروسة بجسدها المشقوق ووجهها المليح التعميس تتقدم ذاهلة يائسة ضائعة . اشتعل لى نشاط مقتحم . التصق بصرى بها . اندفعت تابعا لطابور السبايا غير مبال بمن

أرتطم بهم من الواقفين ولا باحتجاجاتهم ولا باتهاماتهم الباطلة بأننى أجرى وراء أجساد النساء العارية . ناديتها مرارا فتلاشى صوتى فى هدير الأصوات المتصاعدة . لم أفلح فى لفت نظرها أو تنبيهها . حتى حجزنى عنها الحراس الذين منعوا الجماهير من دخول ميدان القصر المخصص للصفوة من أهل الحيرة . هكذا تجلت واختفت كالشهاب تاركة إياى للجنون والقنوط . وأين الأبناء ؟ . هل يعيشون الآن فى كنف جدهم ؟ . وفضفضت ضيقى بالإفضاء بسرى إلى هام صاحب الفندق فقال لى :

— قد تعرض للبيع فى سوق الجوارى !

فقلت فى ارتياب :

— ولكنها حرب تحرير !؟

فقال :

— إلا السبايا فلهن معاملة خاصة !

باركت هذا النفاق باعتباره ثوبا للأمل فى سماء سوداء . وتشبثت أكثر بالبقاء ، وجعلت أطوف بسوق الجوارى كل يوم ، وحلمى بجمع الشمل يتحدى اليأس ، وذات مساء تلقانى صاحب الفندق بابتسامة مشجعة وقال :

— غدا ستعرض السبايا للبيع ..

نمت ليلتها نوما متقطعا . وذهبت إلى السوق فكنت أول الذاهبين .

ولما عرضت عروسة اقتحمت المزداد بإصرار . تبدت في ثوب أخضر
لأول مرة في حياتها ، وتحلى جمالها ، رغم الحزن الشديد . وكانت تنظر
في داخل ذاتها المهيضة فلم ترقى ولم تتابع ما يجري . ولم يبق معى في
المزايدة إلا شخص سمعت من يهمس بأنه مندوب الحكيم ديزنج . ورسا
المزداد على بثلاثين ديناراً ، فلما دفعت إلى عرفتنى فارتمت بين يدي وهى
تنشج حتى أثارت دهشة جميع من بالسوق . ولم تكن ثمة فرصة لتبادل
حديث فمضيت بها خارجه ، وفي الطريق ما ملكت أن سألتها :
كيف الأبناء يا عروسة ؟

ولكنى كفتت عن ملاحظتها لشدة انفعالها حتى خلوت إليها في
حجرتى بالفندق . هناك عانقتها بحرارة ، وتركتها على الأريكة حتى
تثوب لنفسها ، ثم قلت :

— إني حزين لما قاسيت من عناء .

فقلت بصوت غريب :

— لكنك لم تر شيئاً ..

— حدثينى يا عروسة فإننى أوشك أن أجن ..

فقلت ودموعها تسيل :

— عن أى شيء ؟ ، إنه الهول ، اقتحموا الخيمة ، قتلوا أبى بلا
سبب ، قبضوا على ، أين الأولاد ؟ .. لا أدرى ، قتلوا ؟ .. تاهوا ؟ ..
دع الجنون لى أنا ..

فقلت مكابراً مخاوفى :

— لماذا يقتلون الصغار ؟ .. إنهم فى مكان ما .. سنعثر عليهم ..

— إنهم وحوش ، لماذا يمثلون بنا بعد الانتصار على جيشنا ؟ ..!

لكنهم وحوش . كانت ليلة بدر والإله حاضراً يرى ويسمع ولا يفعل
شيئاً !

فقلت مواسياً :

— على أى حال اجتمع شملنا ، وقلبى يحدثنى بأن الرحمة آتية ..

فهتفت :

— لا توجد رحمة ، ولن أرى أبنائى ..

فقلت برجاء :

— عروسة ، الحياة شرها كثير ، ولكن خيرها وفير أيضاً ..

— لا أصدق ..

— سترين .. سنرحل مع أول قافلة إلى المشرق للبحث عن الأبناء ..

— متى تقوم ؟

— مداها عشرة أيام ..

رنت إلى لا شيء فى حزن عميق ففاض قلبى بالحنين كعين متفجرة .
وتسلينا فى فراغنا الطويل بالتجول فى المدينة والمشاهدة واجترار الأمانى
والاستعداد للسفر . غير أن هام صاحب الفندق كان يدخر لى مفاجأة
فدعانى إلى حجرتة ونظر إلى بشىء من الحرج وقال :

— لدى أخبار غير سارة ..

فتساءلت ساخرا ..

— أكثر مما لدى ؟

فقال بهدوء :

— الحكيم ديزنج يرغب في حوز فتاتك .

فدهشت وقلت بحدة :

— أرجو أن تعتبرها زوجتي ..

— سيؤدى إليك ثمنها ..

— إنها ليست سلعة ..

فقال لى بنبرة ناصحة :

— ديزنج رجل قوى وهو من المقربين إلى الإله ..

فقلت وأنا أدارى انزعاجى :

— الغرباء في بلادكم آمنون .

فقال بحرارة :

— رأى في هذه المسألة واحد ، لا يتغير ..

وحررت في أمرى ، هل أنقل الحديث إلى عروسة ؟. هل أضيف إلى

أحزانها حزنا جديدا ؟. الحق ألى أشفقت من تكدير صفو الحلم الباقي

لها . وتساءلت هل يستطيع ديزنج أن ينتزع عروسة منى بقوة نفوذه ؟.

وتذكرت حاجب الوالى الذى سرق منى حليلة فى وطنى ، ولكنى لم

أطمئن إلى رأى مستقر . وطوال الوقت شعرت بخطر يطاردنى ، وبأن

سعادتى لا تقف على قدمين ، ولا أجنحة لها . وفى صباح اليوم السابق

ليوم الرحيل بأربعة أيام استدعانى خادم لمقابلة هام فى حجرته . وهناك

وجدت ضابط شرطة فقدمنى هام إليه ، وإذا به يقول :

— ستذهب معى لمقابلة رئيس شرطة العاصمة .

سألته عن السبب فادعى الجهل به . طلبت أن أخبر فتاتى فقال

الضابط :

— سينيب عنك هام فى ذلك ..

وذهبنا إلى إدارة الشرطة العامة بالشارع الملكى فمثلت أمام المدير

الذى جلس على أريكة بين بعض معاونيه . نظر إلى نظرة لم أرتح لها

وسألنى :

— أنت قنديل محمد العنابى الرحالة ؟

فأجبت بالإيجاب ، فقال :

— إنك متهم بالسخرية من دين هذه الدار التى تستضيفك !

فقلت بقوة ووضوح :

— تهمة لا أساس لها من الصحة ..

فقال ببرود :

— يوجد شهود ..

فهتفت :

— لا يمكن أن يشهد بذلك ذو ضمير .

فقال باستياء :

— لا تطعن الأبرياء ولتدع ذلك لتقدير القاضى .

وألقى القبض على . وفى صباح اليوم التالى قدمت إلى المحكمة . أعلنت التهمة فرفضتها . وجاء شهود خمسة على رأسهم هام صاحب الفندق فأدلووا بشهادة واحدة — كأنها قطعة محفوظات — بعد أن أدوا اليمين . وأصدرت المحكمة حكمها بسجنى مدى الحياة ، مع مصادرة أموالى وما أملك ، وبذلك دخلت عروسة فى المصادرة . حدث ذلك كله ما بين يوم وليلة . ذقت طعم اليأس المرير وعرفت أنه حقيقة تقع لا حكاية تروى . ضاعت عروسة ، تلاشت الرحلة ، تبدد حلم دار الجبل ، اختفى وجودى نفسه من هذه الدنيا . وكان السجن عند مشارف المدينة فى منطقة صحراوية . وهو عبارة عن مكان متسع تحت الأرض ، ذى منافذ ضيقة فى السقف ، جدران من الأحجار الكبيرة ، وأرضه رملية . ولكل سجين سروال لا غير وفروة ، يكتنفه جو خانق ذو رائحة كدرة ، نصف مظلم كأنه فجر لا تشرق فيه شمس . نظرت حولى وقلت فى ذهول : « سأتبقى هنا حتى آخر يوم فى حياتى ! » . وتطلع إلى الرفاق وسألونى عن جريمتى . سألونى وسألت . أدركت أن ما يجمعنا هى جرائم العقائد والسياسة ، وأنى واجد فى ذلك شيئا من العزاء إن أمكن لمثلئ أن يتعزى . إنهم مجموعة نادرة من الأحرار الذين

تضيق بهم الأجواء الفاسدة . سمعوا حكايتى فعلق أحدهم عليها قائلا :

— حتى الغرباء ..

ولم يكن أحد منهم قد كفر بالإله فهذه جريمة عقوبتها ضرب العنق ، ولكن نقلت عنهم تساؤلات ناقدة لبعض التصرفات الشاذة التى تمس العدالة أو حرية الإنسان . ورأيت بينهم عجوزا نيف على الثمانين ، قضى منها فى السجن خمسين عاما بدأها على عهد الملك السابق سلف الملك الحالى . رأيته قد فقد حواسه وذاكرته فهو لا يدرى أين هو ، ولا ماذا جاء به ، وينطرح على فروته جسدا ضئيلا بلا روح . قال صوت :

— إنه أجدرنا بالتهنئة .

فصدقت على قوله بلا تردد . وخامت أفكارنا حول وضع الإنسان فى هذا العالم .

— لا يوجد بلد سعيد .

— الشكوى هى لغة الإنسان المشتركة .

— نحن الحائرون بين الواقع القبيح والحلم الذى لا يتحقق .

— لكن ثمة بلدان أفضل ..

— هى نفسها لم تعرف الرضى بعد .

— ودار الجبل ؟

وثب قلبى فى صدرى حال استقبال الاسم الساحر . تذكرت

بحسرة هدى الضائع . وسألت :

— ماذا تعرف عنها ؟

— ليس أكثر مما يقال عادة من أنها وطن الكمال ..

فسألت باهتمام :

— ألم تقرأ عنها كتاباً أو قابلت من زوارها أحداً ؟

— كلا .. ليس إلا ما يقال ..

— ومنذ يحقق الحلم ؟

— الإنسان ، لا شيء سوى الإنسان ..

ومللت الكلام . مللت مكابدة الحشرات . مللت أكاذيب الأمل .

وقلت لنفسى :

— لا دنيا لي إلا هذا السجن الأبدى .

لم أجد فى عقلانية أستاذى الشيخ مغاغة أى جدوى فى سجنى الدائم ولكنى وجدت فى قدرية أمى الساذجة راحة اليأس ، كأنها فلسفة خلقت خاصة للسجن الأبدى . قلت مستسلما : « لتكن مشيئة الله .. فكل ما جاءنى من عنده » . سلمت نفسى لقدرى : دفنت آمالى . شجعت للفناء ماضى وحاضرى ومستقبلى . الأمل الوحيد الباقى لسجين مثلى هو قتل الأمل ، والتكيف مع القبر الذى ازدردنى ، والزواج من اليأس المهيمن المترامى الراسخ . أطرد أشباح الوطن والأم وغروسة والأبناء ودار الجبل . وآلف الرائحة الكدرة فلا رائحة فى

الوجود غيرها ، والضوء الخابى نصف المظلم فلا ضوء فى الكون غيره ، والهوام المنتشرة فهى مالكة المكان وصاحبة الحق الأول فيه ، والألم والملل فهما الرفيقان الدائمان . ورحت أغرق فى أعماق لا نهائية . ويسود الصمت ويتحول الغذاب إلى عادة وأنهل من اليأس قوة عجيبة على الاحتمال والصبر . ويخترق جدار الصمت صوت يقول :

— يحكى عن سجين قديم أنه أنشأ فى ذاته قوة خارقة حتى استطاع أن يخترق جدار السجن كأنه صوت وطار فى الهواء إلى ما وراء الحدود ! فيتلقى صبرى هذا الهذيان بطيبة . وبعد يوم أو عام قال صوت آخر :

— قد تقوم الحرب بين الحيرة والحلبة فنصعد مرة أخرى إلى سطح الأرض ..

فأعفو عن ذكرنى بسطح الأرض وأتساءل متى أفقد الحواس مثل العجوز السعيد ! . وهبطت فى الأعماق درجات فى إثر درجات فضاء الزمن فيما ضاع من أسباب الحياة ، واختفى التاريخ . وجهلت الساعة واليوم والشهر والعام ، توارت المعالم ، وبات عمرى لغزاً ، وجعلت أكبر بلا تحديد ولا حساب ، ولا مرآة أرى فيها نفسى إلا الرفاق فأتخيل ما صرت إليه من بشاعة وقذارة ، فلم ينعم بالسعادة فى دنيانا المظلمة إلا الهوام والحشرات . لا شك أن الأجيال والعصور والدهور تتعاقب وأننا نتذوق طعم الفناء بجلالة الأبدى . هكذا .. هكذا .. هكذا ..

حتى زج إلينا بقادم جديد التفننا حوله كالهوام ، ننظر باستغراب إلى القادم من العالم الآخر . رغم كبره وتعاسته خيل إلى أنني لا أراه لأول مرة . وكان العجوز قد مات منذ زمن لا ندرية فحل محله . وراح ينظر في وجوهنا ويكي . وقال قائل :

— لا تبك يا رجل فالدموع تؤذى الهوام ..

وسأله سائل :

— من أنت ؟

فأجاب برثاء :

— أنا الحكيم ديزنج .

فخرجت من غيوبتي الأبدية وصحت بصوت غريب :

— ديزنج .. ديزنج .. هيهات أن أنساك ..

فسألني :

— من أنت ؟!

فهتفت وقد وقعت في الزمن :

— إني ضحيتك !

فقال بضراعة :

— أصبحنا في البلوى سواء .

فصرخت :

— كلا لسنا سواء .

فهتف :

— انقلبت الدنيا ، ثار قائد الجيش على الملك وقتله وأحل نفسه محله .

فدبت الحياة في الرفاق وانبعث منهم انتفاضة حماسة ، وتساءل أحدهم :

— ماذا يحدث فوق سطح الأرض ؟

فقال ديزنج :

— قتل رجال الملك ، أما أنا فقضى علي بالسجن مدى الحياة ..
امتلاأت العيدان الخاوية بأمل جديد وتعالى الهتاف للإله الجديد أما أنا فسألته بوحشية :

— ألا تتذكرني ؟

فسألني بخوف :

— من أنت ؟

فهتفت :

— أنا صاحب عروسة ، تذكرتني الآن ؟!

فتراجع في حذر ونكس رأسه . سأله :

— ماذا حصل لها يا وغد ؟!

قال بذل وانكسار :

— حاولنا الهرب في القافلة الذهبية إلى دار الخلبة ولكنهم قبضوا علي

أما هي فرحلت إلى الحلية ..

— ماذا عن أبنائها ؟

— سافرنا معا إلى المشرق للبحث عنهم ولكننا لم نعثر لهم على أثر ،

حدث ذلك منذ عهد طويل ..

لكنني نسيت أحزاني فيما نسيت أما غضبي فكان يتضاعف
وصرخت فيه :

— ما أنت بحكيم ولكنك وغد لئيم ، لم تتورع عن تلفيق تهمة لي
لتسرق امرأتى ، والقتل دون ما تستحق من عقاب ...

وهبط على صوت الحارس من منفذ في السقف يأمرني بالابتعاد عنه
فرجعت إلى موضعي وجسمي الضعيف ينوء بدفقة الحياة المبالغته التي
اكتسحتها . جلست على فروتي مسند الظهر إلى الجدار مادا ساق ،
متلقيا من جديد تيار الحياة والتاريخ . وددت أن أسأله عن المدة التي
قضيتها في السجن ولكني كرهت أن أواصله بحديث . غير أنه نظر نحوي
وقال بخزن :

— إنني آسف ونادم .

فقلت بحسب :

— مثلك غير حزين بالندم .

فقال بنفس النبرة :

— نلت جزائي بمعاشرة امرأة لم تكف عن كراحتي قط ..

ثم وكأنه يحدث نفسه :

— عشرون عاما لم تغير من قلبها !

عشرون عاما ! يا لضياح العمر . جاءني الجواب قاسيا قاطعا كنصل
الخنجر . ها هو الرحالة ينحدر إلى منتصف الحلقة الخامسة . وسيموت
ذات يوم في هذا القبر وما حقق هدفا ولا حظى بمتعة ولا أدى واجبا .
وضاعف من وكسني تواجد هذا الوغد معي في قبرى ليذكرني بعثرائي
رسوء حظي وحيدى عن هدفي . أما الرفاق فاشتعلت أنفسهم بأمل
جديد ، وتوقعوا جميعا أن يصدر عفو شامل عنهم بين ساعة وأخرى .
ولم يخب أملهم فجاءنا ذات يوم مدير السجن وقال :

— اقتضت إرادة الإله الجديد إصدار عفو شامل عن ضحايا الملك
المخلوع الغادر .

ووقفنا جميعا نهتف بالدعاء والتأييد . وغادرنا السجن فلم يبق إلا
ديرنج . وأذانا ضوء النهار في الخارج لاعتياننا الظلام فحجبنا أعيننا
بأكفنا . ومضى بي ضابط إلى مركز الغرباء . وقال لي المدير :

— نحن آسفون لما حل بك من ظلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار
الحيرة ، وقد تقرر أن يرد إليك مالك ومتاعك عدا الجارية التي غادرت
البلاد .

وذهبت من فوري إلى حمام عمومي فحلقوا لي شعر رأسي
وجسدي ، واغتسلت بالماء الدافئ ، ودهنت رأسي وجسمي بزيت
(رحلة ابن بطوطة)

الباشام لاستئصال الهوام والحشرات . وقصدت فندق الغرباء وأنا أتوقع لقاء مثيرا بينى وبين هام غير أنه تبين لى أن الرجل مات وحل محله آخر يدعى تاد هو ابن أخيه وزوج ابنته . وكان اللقاء المثير حقا لا بينى وبين هام ولكن بينى وبين نفسى فى المرأة . رأيت قنديل الكهل المبعوث من قبره بعد دفن أستمر عشرين عاما . كهل حليق الرأس والذقن . ناحل ذابل غائر العينين ذو لون كئيب ونظرة ميتة ووجنتين بارزتين . وفى الحال قررت أن أبقى فى الحيرة حتى أسترد شيئا من الصحة والعافية والتوازن الداخلى . ورحت أمشى لا لأرى جديدا ولكن لأدرب قدمى على المشى . وجعلت أتساءل عما يجدر بى عمله ، هل أرجع إلى وطنى قانعا من الغنيمة بالإياب ، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير ؟ . وكرحت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجذب والخبية . وحدثنى قلبى بأنتى فى وطنى محدود من الأموات لا أحد ينتظرني أو يهيمه مرجعى ، هذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم فاستأصل الجذور وبذر فى أصولها الغربية والوحشة . كلالن أرجع . لن ألتفت إلى الوراء . بدأت رحالة ، سأظل رحالة ، وفى طريق الرحلة أسير . إنه قرار وقدر ، خيال وفعل ، بداية ونهاية . فألى دار الحلية وما بعدها حتى دار الجبل . ترى كيف تتبدى اليوم يا عروسة وأنت بنت أربعين !؟

دار الحلية

كالأيام الخالية تحركت القافلة فى تودة وجلال . انغمسنا فى ظلمة الفجر الرفيقة لا لأنهل من الشعر هذه المرة ولكن لأتلقى لطمات من ذكريات السجن ، وحسرات من العمر الضائع . ورأيت أشباح الرفاق فرأيت جيلا جديدا من التجار ، فما زال النشاط يتمادى والمال يتكاثر والجاه يصيد المغامرين ، أما الحالمون فالحيرة لهم . وتتابعت على إحباطاتى الماضية ، ساعة غادرت الوطن ناعيا حليلة ، ساعة طردت من المشرق باكيا عروسة ، وساعة أودع الحيرة ناديا السعادة والشباب . وانتبهت إلى الشرق فرأيته يموج بماء الورد الأحمر وانداح وجه الشمس كدأبه طيلة عشرين عاما . وتجلت الصحراء لا نهائية وتنفسى الصيف . وتواصل السير ما يقارب الشهر ، وفى إحدى محطات الراحة سألت صاحب القافلة عن القانى بن حمديس فقال لى :

— البقية فى حياتك .

وسألت عن الشيخ مغاغة الجبلى ولكنه لم يسمع به ، لا هو

ولا أحد من تجار القافلة . وعسكرنا في الشامة استعدادا لدخول الحلبة . كانت لحيتى قد نبتت وكذلك شعر رأسى وأخذ دم الصحة يجرى من جديد . وواصلنا السير حتى رأينا السور العظيم تحت ضوء تربع القمر . وتقدم إلينا مدير الجمرك بسترته الخفيفة المناسبة لجو الصيف المعتدل وقال بصوت مرح :

— أهلا بكم في الحلبة عاصمة دار الحلبة ، دار الحرية ..

دهشت لسماع الكلمة الملعونة في كل مكان ، ودهشت أيضا لخلو كلامه من التحذير المعلن أو الخفى .

وقلت لصاحب القافلة :

— أول دار ترحب بالقادم بلا نذير .

فضحك قائلا :

— إنها دار الحرية ولكن الحرص أمان الغريب ..

ومضوا إلى فندق الضيوف . وفي الطريق — تحت ضوء

القمر — تناثرت معالم من المدينة في عظمة موحية بمنظر جديد ، إلى كثرة من الحوادث الداهية والآفة على ضوء المشاعل رغم اقترابنا من الهزيع الأخير من الليل . أما مدخل الفندق فقد استوى في اتساع وعمق تحت سقيفة تتدلى منها القناديل على هيئة تهر الأبصار . وبدا بناء الفندق ضخما مرتفعا ينطق بجمال الهندسة ونعمة الثراء . أما حجرتى

فادخرت لى مفاجأة أخرى بألوان جدرانها الزرقاء وسجادتها الوثيرة وفراشها النحاسى المرتفع بأغطيته المزركشة ، وغير ذلك مما لا يوجد عادة إلا في البيوت الكريمة بوطنى . تطالعنى هنا حضارة بلسان بليغ متفوقة ولا شك على حضارة الحيرة بدرجات ودرجات . ووجدتني أتساءل ترى أين وكيف تعيش عروسة ؟ . وقبل أن أنغمس في الذكريات زارنى رجل متوسط العمر يرتدى سترة زرقاء وسروالا أبيض قصيرا ، قال باسم :

— قلشم .. مدير الفندق ..

فقدمت له نفسى فسألنى برقة :

— أى خدمة ؟

فقلت بصراحة :

— لا شىء مقدما على النوم الآن إلا أن تخبرنى بأجرة الإقامة .

فقال باسم :

— ثلاثة دنانير لليلة !

هالنى الرقم وقلت لنفسى إنه يبدو أن كل شىء يتمتع بالحرية في الحلبة حتى الأسعار ، وكالعادة دفعت أجرة عشرة أيام لبليها .

وأسلمت نفسى إلى فراش لم أحظ بمثل حنانه منذ غادرت وطنى . واستيقظت مبكرا فجاءنى الفطور إلى حجرتى من الخبز واللبن والجبن

والزبد والعسل والبيض . أدهشنى الطعام بكميته وكيفيته فاقتنعت أكثر
بأننى أزور عالما جديدا مثيرا . وغادرت الحجرة تحركنى لهفة
وأشواق ، وأمل بأننى سأعثر على عروسة أيضا لكى تتم لعبة القدر .
وقابلنى قلشم عند مدخل الفندق فقال لى :

— توجد هوداج تحت تصرف الرحالة لمشاهدة المعالم الهامة ..
فتفكرت قليلا وقلت :

— أود أن أبدأ بمفردى وكيفما اتفق ..

ومنذ اللحظة الأولى شملنى شعور بأننى فى مدينة كبيرة يذوب فيها
الفرد فلا يدرى به أحد . ترامى أمام الفندق ميدان واسع مستدير تقوم
على محيطه العمائر والخوانيت ، تتوسط نهايته قنطرة تعلو نهرا وتفضى
إلى ميدان صغير تتفرع منه شوارع كبيرة لا ترى لها نهاية ، تحف بجوانبها
العمائر والأشجار ، أين أتجه ؟ .. وأين توجد عروسة ؟ .. وكيف أسير
بلا مرشد ؟ ! تركت قدمى تقوداننى بحرية فى مدينة الحرية ، فانبهرت
بكل ما وقعت عليه عيناي بين خطوة وأخرى . شبكة من الشوارع
لا تعرف لها أول من آخر ، صفوف من العمائر والبيوت والقصور ،
خوانيت بعدد رمل الصحراء تعرض من ألوان السلع ما لا يحيط به
حصر ، مصانع ومتاجر ودور لهُو ، حداثق كثيرة متعددة الأشكال
والألوان ، تيارات لا تنقطع من النساء والرجال والهوداج ، أغنياء

وكبراء ، وفقراء أيضا وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة
والمشرق ، ولا يخلو طريق من فارس من فرسان الشرطة . ملابس
الرجال والنساء متنوعة ، وللجمال حظ موفور وكذلك الأناقة ،
ويصادفك الاحتشام كما يصادفك التحرر القريب من العرى ، والجد
والرزانة يؤاخيان المرح والبساطة ، وكأننى ألقى لأول مرة بشرا لهم
وجودهم ووزنهم وإدلالهم بأنفسهم ، ولكن كيف يأمل آدمى فى
العثور على عروسة فى هذا البحر الهادر بلا شطآن ؟ ! سرت وتعبت
واسترحت فى الحداثق وأنا أشعر طيلة الوقت بأننى لم أبدا بعد . وندمت
على أننى لم آخذ هودجا من هوداج الرحالة كما أشار قلشم ، غير أنه
صادفنى حادثان مثيران . أولهما حادث فردى ألمت به فى حديقة عامة
إذ رأيت رجالا من الشرطة يستجوبون بعض الأفراد ، ثم علمت أن
البستانى عثر على جثة امرأة قتيلة فى ركن من الحديقة . وأمثال هذا
الحادث تقع كثيرا فى كل مكان ، أما الذى أثار دهشتى وانزعاجى فكان
مرور مظاهرة من نساء ورجال وهم يهتفون بمطالبهم ورجال الشرطة
يتبعونهم دون أن يتعرضوا لهم بخير أو شر . تذكرت مظاهرة شبيهة
شهدتها فى وطنى قصدت الوالى لتشكو إليه رفع المكوس وضيق الحال .
أما هذه المظاهرة فكانت تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الجنسية
الشاذة ! ! لم أصدق عينى ولا أذنى ، وأيقنت بأننى أطوف بعالم

غريب ، وأن هوة سحيقة تفصل ما بيني وبينه ، وخالطني خوف من المجهول . واقترب الظهر وارتفعت الحرارة إلى أقصى حد غير أن صيف الحلبة صيف محتمل ، ومضيت أتساءل عن كيفية الرجوع إلى الفندق عندما تهادى صوت في الجو يصيح :

— الله أكبر ..

وثب قلبي في صدري وثبة عنيفة أشعلت النار في حواسي . رباه إنه أذان . هذا مؤذن يدعو إلى الصلاة فهل الحلبة دار إسلامية ؟! واندفعت على هدى الصوت حتى وجدت جامعا عند مدخل شارع . لم أسمع هذا الصوت ولا رأيت هذا المنظر منذ ربع قرن . إني أولد من جديد وكأنما أكتشف الله لأول مرة . ودخلت المسجد ، توضأت ، ووقفت في صف ورحت أصلي الظهر في فرحة متوهجة ، بعين دامعة ، وصدر منشرج . وتمت الصلاة ومضى الناس ينصرفون ولكني تسمرت في مكاني حتى لم يبق في الجامع إلا الإمام وأنا . هرولت نحوه ، سريته ذراعي . وانزلت عليه تقبيلا . استسلم لانفعالي هادئا مدركا باسماء ، ثم تتمم :

— أهلا بالغريب ..

وجلسنا غير بعيد من المحراب . قدمت له نفسي فقدم لي نفسه ، الشيخ حمادة السبكي ، من أهل الحلبة الصميمين . قلت بأنفاس

مضطربة وصوت متهدج :

— ما تصورت الحلبة دارا إسلامية ..

فقال بهدوء :

— الحلبة ليست من ديار الإسلام ..

ولما قرأ دهشتي قال :

— الحلبة دار الحرية ، تمثل فيها جميع الديانات ، فيها مسلمون ويهود

ومسيحيون وبوذيون ، بل فيها ملحدون ووثنيون ..

فازددت دهشة وسألته :

— كيف تأتى لها ذلك يا مولاي ؟

فقال ببساطة :

— كانت في الأصل وثنية ، وأتاحت حررتها الفرصة لكل من شاء أن

يدعو إلى دينه ، وتوزعت الديانات أهلها فلم تبق اليوم إلا قلة من

الوثنيين في بعض الواحات !

فسألته واهتمامي يتضاعف :

— وبأي دين تلتزم الدولة ؟

— الدولة لا شأن لها بالأديان ..

— وكيف توفق بين أهل الملل والنحل ؟

فقال بوضوح :

— تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة ..

فسألته كالمحتج :

— وهل يرضون بذلك ؟

— كل طائفة تحتفظ في داخلها بتقاليدها الذاتية ، واحترام يسود العلاقات العامة لا امتياز لطائفة ولو جاء رئيس الدولة منها ، وبالمناسبة أخبرك بأن رئيسنا الحالي وثني !

دار مذهلة ومزلزلة للدماغ . وقلت متفكرا :

— حرية لم أسمع عنها من قبل ، هل أتاك يا مولاي حديث المظاهرة

التي تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الشاذة ؟!

فقال الإمام باسمها :

— فيها مسلمون أيضا !

— لا شك أنهم يتعرضون للجزاء داخل طائفتهم ..

نزع الشيخ عمامته فمسح على رأسه ثم أعادها وهو يقول :

— الحرية هي القيمة المقدسة المسلم بها عند الجميع !

فقلت محتجا :

— هذه حرية تجاوزت الحدود الإسلامية ..

— لكنها مقدسة أيضا في إسلام الحلبة ..

فقلت وأنا أكابد حبيبة أمل :

— لو بعث نبينا اليوم لأنكر هذا الجانب في إسلامكم ..

فتساءل بدوره :

— ولو بعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كله ؟!

آه .. صدق الرجل وأذلني بتساؤله . وقال الإمام :

— طوفت بديار الإسلام كثيرا !

فقلت بأسى :

— من أجل ذلك قمت برحلتى يا شيخ حمادة ، أردت أن أرى وطنى

من بعيد ، وأن أراه على ضوء بقية الديار ، لعلنى أستطيع أن أقول له كلمة نافعة ..

فقال الشيخ باستحسان :

— أحسنت ، وفقك الله ، وستأخذ من دارنا أكثر من عبرة !

قلت وقد عاودنى حب استطلاع الرحالة :

— أمامنا إذا سمحت فرص لتبادل الآراء ، ولكن هل تستطيع الآن

أن تمدنى بمعلومات عن نظام الحكم في هذه الدار العجيبة ؟

فقال الشيخ حمادة :

— إنه نظام فريد ، لم يصادفك فيما رأيت ولن يصادفك فيما

سرى ..

— ولا دار الجبل ؟

— لا أعرف شيئا عن دار الجبل حتى أدخلها في المقارنة ، ما يصح أن تعرفه هو أن رئيس دولتنا ينتخب تبعا لمواصفات علمية وأخلاقية وسياسية ، فيحكم مقدار عشر سنوات ، ثم يعتزل ليحل محله قاضى القضاة ، وتجري انتخابات جديدة بين الرئيس المعتزل والمرشحين الجدد ..

فهتفت بحماس :

— نظام حسن ..

— كان الأجدر بالمسلمين أن يبشروا به قبل غيرهم ، هذا وللرئيس مجلس من أهل الخبرة في جميع الأنشطة ، يعاونه بالرأى ..
— وهل رأيه ملزم ؟

— عند الاختلاف يعتزلون جميعا ويجري الانتخاب من جديد ..
نبتت :

— نعم النظام ..

فواصل الشيخ حمادة السبكي حديثه :

— أما الزراعة والصناعة والتجارة فيقوم بها القادرون من الأهالى

فقلت وأنا أتذكر بعض ما رأيت من مشاهد :

— لذلك يوجد أغنياء وفقراء ..

فقال الشيخ :

— كما يوجد عاطلون ولصوص وقتلة !

فابتسمت قائلا بنبرة ذات مغزى :

— الكمال لله وحده .

فقال بجدية :

— ولكننا قطعنا شوطا لا يستهان به في هذا السبيل !

— لو أنكم تطبقون الشريعة ؟!

— لكنكم تطبقونها !

فقلت بإصرار :

— الحق أنها لا تطبق .

— الالتزام هنا بالمرجع ، وهو يطبق نصا وروحا ..

— ولكن الدولة ملتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما يخص إلى ..

— وبالمشروعات العامة التى يعجز عنها الأفراد كالحدايق والجسور

والمتاحف ، ولها مدارس بالمجان للناغبين من الفقراء ، ومستشفيات

بالمجان كذلك ولكن جل الأنشطة فردية ..

فتفكرت مليا ثم سألته :

— لعلكم تعتبرون أنفسكم أسعد البشر ؟

فهز رأسه جادا وقال :

— إنه حكم نسبي يا شيخ قنديل ، ولا يمكن أن يطلق بثقة كاملة ما دام يوجد أغنياء وفقراء ومجرمون ، فضلا عن ذلك فحياتنا لا تخلو من قلق بسبب من الأطماع المتبادلة بيننا وبين الحيرة في الجنوب ، وبين دار الأمان في الشمال ، فهذه الحضارة الفريدة مهددة وقد تندثر في موقعة ، وقد تتدهور حتى مع النصر إذا اجتاحتنا الخسائر ، ثم إن الاختلافات الدينية لا تمر دائما بسلام ..

وسألني عن برنامج رحلتي فلخصت له ما صادفني مذ تركت الوطن ، فحزن الرجل لي وتمنى لي التوفيق . قال :

— أنصحك باكتراء هودج سياحة فمعالم العاصمة أكثر من أن تحيط بها بنفسك وعندنا مدن أخرى كثيرة تستحق المشاهدة ، أما العثور على عروسة في دارنا فأيسر منه الوصول إلى دار الجبل ..

فقلت بأسى :

— إني أدرك ذلك تماما ولكن لي مطلب آخر هو أن أزور حكيم

الحلبة ..

فقال بدهشة :

— ماذا تعني ؟.. للمشرق حكيمها ، وللحيرة حكيمها . أما هنا

لمراكز العلم تروج بالحكماء ، وتستجد عند أي منهم ما ترغب في معرفته وأكثر ..

شكرت له حديثه ومودته وقمت وأنا أقول :

— آنا لي أن أذهب .

فأمسك بي قائلا :

— بل ستتغدى معا في بيتي ..

رحبت بالدعوة لأنغمس في حياة الحلبة . سرنا معا حوالي ربع ساعة إلى شارع هادئ تحف به أشجار الأكاسيا على الجانبين ، واتجهنا إلى عمارة أنيقة يقيم الإمام في دورها الثاني . لم أشك أن الإمام من الطبقة الوسطى ولكن جمال حجرة الاستقبال دلني على ارتفاع مستوى المعيشة في الحلبة . وصادفتني تقاليد غريبة تعتبر في وطني بعيدة عن الإسلام ، فقد رحبت بي زوجة الإمام وكريماتها بالإضافة إلى ابنيه . وتناولنا الغداء على مائدة واحدة ، بل قدمت إلينا أقذاح نبيذ . إنه عالم جديد وإسلام جديد . وارتبكت لوجود المرأة وكريماتها ، فمنذ بلغت مشارف الشباب لم تجمعني مائدة طعام مع امرأة لا أستثنى من ذلك أمي نفسها . ارتبكت وغلبنى الحياء ولم أمس قدح النبيذ . قال الإمام باسم :

— دعوه لما يريجه ..

فقلت :

— أراك تأخذ برأي أبي حنيفة ؟

فقال :

— لا حاجة بنا إلى ذلك فالاجتهاد عندنا لم يتوقف ، ونحن نشرب
مجاراة للجو والتقاليد ولكننا لا نسكر ..
كانت زوجه ست بيت ، أما سامية كريمته فكانت طيبة أطفال
بمستشفى كبير ، وأما الابنان فكانا يعدان نفسيهما ليكونا مدرسين .
وأذهلتني انطلاقة الأم وكريمتهما في الحديث أكثر مما أذهلني العري في
المشرق . تحدثتا بتلقائية وشجاعة وصراحة كالرجال سواء بسواء .
وسألتني سامية عن الحياة في دار الإسلام وعن دور المرأة فيها .. ولما
وقفت على واقعها انتقدته بشدة ، وراحت تعقد المقارنات بينه وبين
المرأة في عهد الرسول والدور الذي لعبته ، حتى قالت :

— الإسلام يذوي على أيديكم وأنتم تنظرون ..
وتأثرت أيضا بجمالها وشبابها ، وضاعف من تأثري طول حرمانى
وتقدمى في السن . وحكى لهم الإمام جانباً من حياتى ورحلتى وهدفى
منها . قال :

— على أى حال فليس هو من المستسلمين ..

فقلت سامية لى :

— إنك تستحق الإعجاب ..

فبلغنى التأثير مداه . وجاء العصر فأدينا صلاته جميعاً وراء الإمام مما دعانى
إلى التفكير والتأمل أكثر . وغادرتهم بجسدى وهم يحتلون بعمق ضميرى

روحى . وفى الطريق ثارنى الحنين إلى الاستقرار والدفء والحب . أين
عروسة ؟ أين دار الجبل ؟ ضاع الشباب تحت الأرض ، فمتى أستقر
وأكون أسرة وأنجب ذرية ؟ حتى متى أظل ممزقاً بين ندائين ؟ !
وفى اليوم التالى اكتريت هودجا ، طاف بى بمعالم العاصمة الهامة ،
مراكز التعليم ، القلاع ، المصانع الكبرى ، المتاحف ، الأحياء
القديمة . وأخبرنى المرشد أن أهل الديانات المختلفة يمثلون سير أنبيائهم فى
الجوامع والكنائس والمعابد فأعلنت عن رغبتى فى مشاهدة سيرة نبينا
عليه الصلاة والسلام ، فمضى بى إلى أكبر جامع فى العاصمة .
وجلست بين المشاهدين ، وراح قوم يمثلون السيرة فى باحة الجامع من
بدايتها إلى نهايتها . رأيت فيما خيل إلى النبى والصحابة والكفار ، وهو
ما اعتبرته جرأة تقارب الكفر ، ولكن كان على أن أرى كل ما يستحق
التسجيل . وأثر فى الشخص الذى يقوم بدور الرسول للحد الذى
صدقته ، فاتفعلت به انفعالا فاق كل تصور حتى رأيته فى المنام . وقلت
لنفسى :

— إن ما يدهشنى حقاً هو أن إيمان هؤلاء الناس صادق وأمين ..

ودعوت الإمام وأسرتة للغداء فى الفندق فتوثقت علاقتى بهم أكثر .
وقال لى الشيخ :

— سأعد لك لقاء مع حكيم ذى مكانة يدعى مرهم الحلبي ..

(رحلة ابن فظومة)

فشكرت له اهتمامه بى ، وقضينا وقتا طيبا ، وخفق قلبى بالسرور والانشراح طوال الوقت . وفى صباح اليوم التالى غادرت حجرتى بالفندق لزيارة الحكيم . غير أننى وجدت كثيرين من النزلاء مجتمعين فى مدخل الفندق وهم يخوضون فى حديث أثار اهتمامهم فيما بدا إلى أقصى حد .

— الخبر يقول إن قائدا من قواد الحيرة ثار على الملك ولكنه فشل فهرب إلى دار الحلبة ..

— أتعنى أنه يقيم الآن فى الحلبة ؟

— يقال إنه يقيم فى واحدة من واحات الحلبة ..

— المهم أن ملك الحيرة يطالب بالقبض عليه وتسليمه له .

— لكن ذلك مخالف لمبادئ « المرجع » .

— وقد رفض طلبه ..

— هل تنتهى المسألة عند هذا الحد ؟

— إنهم يتهامون عن حرب ..

— وإذا انتهزت دار الأمان الفرصة وهاجمت دار الحلبة ؟

— هذه هى المشكلة الحقيقية ..

تسلل القلق إلى أعماقى أنا الذى تطاردنى الحروب من دار إلى دار . وأردت الذهاب إلى الحكيم ولكن هالنى أن أرى الميدان وهو يتلقى

مظاهرات عديدة كأنما كانت على ميعاد . اضطرت للبقاء فى مدخل الفندق ، أنظر وأسمع وأنا من الدهشة فى غاية . مظاهرة تطالب بتسليم القائد الهارب . مظاهرة تنذر من يسلمه بالويل . مظاهرة تطالب بإعلان الحرب على الحيرة . مظاهرة تطالب بالمحافظة على السلام بأى ثمن . ملكتنى الحيرة وتساءلت عما يمكن أن يفعله حاكم بإزاء هذه الآراء المتضاربة . وانتظرت حتى خلا الميدان فذهبت مسرعا إلى دار الحكيم مرهم فبلغتها متأخرا ساعة عن الميعاد . استقبلنى فى حجرة أتيقة حوت الكنب والمقاعد والثلث معا . وجدته طويلا نحىلا فى الستين من عمره ، أبيض الشعر واللحية ، يرفل فى عباءة زرقاء خفيفة . قبل اعتذارى عن التأخير ، ورحب بى ، ثم سألنى :

— أيهما تفضل ، الجلوس على المقاعد أم الثلث ؟!

فقلت باسما :

— الثلثة أحب إلى ..

فقال ضاحكا :

— هكذا العرب ، إنى أعرفكم ، زرت بلادكم ودرست معارفكم .

فقلت بحياء :

— لست من علماء وطنى ولا فلاسفته ولكنى محب للمعرفة ، ومن

أجل ذلك قمت بهذه الرحلة ..

فقال بهدوء مشجع :

— في هذا ما يكفي ، وما هدفك من الرحلة ؟

فتفكرت مليا ثم قلت :

— زيارة دار الجبل .

— لم أعرف أحدا زارها أو كتب عنها .

— ألم تفكر يوما في زيارتها ؟

فقال باسما :

— من آمن بعقله أغناه عن كل شيء .

فقلت مستدركا :

— دار الجبل ليست بغايتي الأخيرة ولكنني أرجو أن أرجع منها إلى

وطني بشيء يفيد ..

— أرجو لك التوفيق ..

فقلت كالمعتد :

— الحق أني جئت لأسمع لا لأتكلم ..

— هل لديك سؤال يشغلك ؟

فقلت باهتمام :

— حياة كل قوم تتكشف عادة عن فكرة أساسية ؟

فاعتدل في جلسته وقال :

— لذلك يسألنا محبو المعرفة من أمثالك كيف صنعتكم حياتكم .

— وحياتكم جديرة بإثارة هذا السؤال ..

— الجواب بكل بساطة ، لقد صنعناها بأنفسنا .

فتابعته في تركيز وضمت ، فقال :

— لا فضل في ذلك لإله ، آمن مفكرنا الأول بأن هدف الحياة هو

الحرية ، ومنه صدر أول دعوة للحرية ، وراحت تتسلسل جيلا بعد

جيل ..

وابتسم ، وصمت حتى تستقر كلماته في مستقرها من نفسي

وقال :

— بذلك اعتبر كل تحرر خيرا وكل قيد شرا ، أنشأنا نظاما للحكم

حررنا من الاستبداد ، وقدسنا العمل ليحررنا من الفقر ، وأبدعنا العلم

ليحررنا من الجهل ، وهكذا .. وهكذا .. فإنه طريق طويلة بلا

نهاية ..

حفظت كل كلمة بدرت منه باهتمام بالغ أما هو فقد واصل حديثه

قائلا :

— لم يكن طريق الحرية سهلا ، ودفعنا ثمنه عرقا ودماء ، كنا أسرى

الخرافة والاستبداد ، وتقدم الرواد ، وضربت الأعناق ، واشتعلت

الثورات ، ونشبت جزوب أهلية ، حتى انتصرت الحرية وانتصرت

العلم ..

حينئذ رأسي مظهر الإعجابى فراح ينقد أنظمة دار المشرق ودار الخيرة
ويسخر منهما ، بل سخر أيضا من نظام دار الأمان التى لم أزرها بعد ،
وحتى دار الإسلام لم تسلم من حدة لسانه . والظاهر أنه قرأ تغيرا فى صفحة
وجهى فسكت ، ثم قال بنبرة المعتذر :
— إنكم لا تألفون رأى الحر ؟

فقلت بهدوء :

— فى حدود معينة ..

فقال متراجعا :

— معذرة ، ولكن عليك أن تعيد النظر فى كل شيء .

فقلت مدافعا :

— داركم لا تخلو من فقراء ومنحرفين ..

فقال بحماس :

— الحرية مسئولية لا يستطيع الاضطلاع بها إلا القادرون ، وليس
كل من ينتمى إلى الحلبة أهلا لهذا الانتماء ، لا مكان للعجزة بيننا ..
فتساءلت بحماسة :

— أليست للرحمة قيمة مثل الحرية ؟

— هذا ما يردده أهل الديانات المختلفة ، وهم الذين يشجعون

العجزة على البقاء ، أما أنا فلا أجد معنى لكلمات مثل الرحمة أو
العدالة ، يجب أولا أن نتفق على من يستحق الرحمة ومن يستحق
العدالة !

— إنى أخالفك فى ذلك حتى النهاية .

— أعرف ذلك !

— لعلك ترحب بالحرب ؟

فقال بوضوح :

— إذا وعدت بمزيد من الحرية ، ولست أشك مطلقا فى أن انتصارنا
على الخيرة والأمان خير ضمان لسعادة شعبيهما !
وبهذه المناسبة إننى على مبدأ الجهاد فى الإسلام .

وراح يفسره تفسيراً عدوانياً فتصدت لتصحيح نظريته ولكنه لوح
بيده باستهانة وقال :

— لديكم مبدأ عظيم ولكنكم لا تملكون الشجاعة الكافية للاعتراف
به !

فسألته :

— إلى أى دين تنتمى أيها الحكيم مرهم ؟

فأجاب باسمه :

— دين الله العقل ورسوله الحرية !

— وجميع الحكماء مثلك ؟

فقال ضاحكا :

— لبتنى أستطيع أن أزعم ذلك ..

وجاءني بكتابين ، الأول هو « المرجع » أو القانسون الأول في

الحلبة ، والثاني من تأليفه وعنوانه « اقتحام المستحيل » . وقال :

— اقرأ هذين الكتابين تعرف الحلبة على حقيقتها ..

فشكرت له كرمه كما شكرت له حسن ضيافته ثم ودعته

وانصرفت . وتناولت الغداء في الفندق وكانت الألسنة جميعا تلهج

بالحرب . وذهبت عصرا إلى الجامع فصليت وراء الشيخ حامد

السبكي ، ودعاني إلى مجالسته فليت مسرورا . وإذابه يسألني باسم :

— هل عثرت على عروسة ؟

فقلت بخدية :

— التعلق بعروسة وهم لا معنى له !

فصدق على قولي قائلا :

— هذه هي الحقيقة .

ثم سألتني بعد صمت قصير :

— هل تمضي في رحلتك مع أول قافلة ؟

فقلت وأنا أشعر بشيء من الحرج :

— كلا ، أريد البقاء فترة أخرى ..

— قرار حسن ، ويتوافق مع الأحداث المتلاحقة ، فقد منع ملك

الحيرة سير القوافل بين الحيرة والحلبة كرد على رفضنا تسليم القائد

الهارب .

فدهشت وقلقت فقال الشيخ :

— وقد غضب كبار ملاك الأراضي ورجال الصناعة والتجارة

وعقدوا مع الحاكم اجتماعا خطيرا يطالبون فيه بإعلان الحرب !

فتساءلت بقلق :

— وكيف يكون موقف دار الأمان ؟!

فقال الشيخ باسم :

— كأنك صرت من أهل الحلبة ! ، الخلاف بين الحلبة والأمان يدور

حول ملكية بعض عيون الماء في الصحراء الممتدة بيننا وبينهم ، سيسوى

النزاع لصالح الأمان فورا كيلا تفكر في الغدر ..

فقلت بقلق :

— إني غريب . ونذر الحرب تطاير من حولى ..

— أفضل ما تفعل أن تبقى في الحلبة ، وإن طال المقام فلديك من المال

ما يسر لك عملا مثمرا ..

تخلت عن القافلة رغم إشفاقى من أن تكون آخر قافلة تقوم نحو دار

الأمان. شدتني الحلبة إليها بقوة بما وجدت في نجوها من نقاء، وما آنست في بعض أهلها من أمل . وقسمت وقتي بين السياحة وأسرة الشيخ حامد السبكي ، أما عروسة فكانت تحلق مع نجوم الليل . وتشبعت الحياة اليومية بخواطر الحرب ، واستاء كثيرون للتنازلات التي نالتها دار الأمان دون أن تسفك لها نقطة دم . وقال لي مدير الفندق متجهما :
— رغم تضحيتنا بعيون المياه فقد تغدر بنا دار الأمان ..
وتوترت الأعصاب لأقصى حد وانتقلت إلى عداها فأصابني ما أصاب الناس من حولى ، وأفزعني الساعات المحدودة التي أمضيها في وحدة بالفندق ما بين السياحة وأسرة آل السبكي . وثارت أعصابي ، وطالبتني بالإشباع والاستقرار . ولما أعلنت الحلبة الحرب ، وأرسلت جيشها إلى الحيرة ، ثارت أعصابي أكثر ، ورحت أنقب في العاصفة الحمراء عن كهف آمن ألوذ به . وتحدث الناس عن الحرب ، ووازنوا بين القوات والإمكانات ، وانحصرت أنا بعنف في التماس أسباب الإشباع والاستقرار . نسيت كل شيء إلا هذا الهدف القريب . كأنني في سباق أو مطاردة . وشجعني على ذلك جو الأسرة وصدقة سامية الصادقة لي ، وإعجابها بالرحالة ، وعطفها على أحزانه الطويلة . قلت لنفسى « إنها فتاة كاملة ، ولا حياة لي بدونها » . وقلت للشيخ الإمام :
— توكلت على الله وقررت أن أتزوج ..

فتساءل الشيخ :
— هل عثرت على عروسة ؟
فقلت في حياء :
— انتهت عروسة على أى حال ..
— هل وقع اختيارك على أحد ؟
فقلت بهدوء :
— مطلبى عندهم !
فابتسم ابتسامة مشجعة وتساءل :
— أتزوج كرحالة أم مقيم ؟
فقلت بصدق :
— لا أظن أن الحلم سيتلاشى ..
— كل شيء يتوقف على إرادتها ، لم لا تكلمها بنفسك ؟
فارتبكت وقلت :
— يستحسن أن تنوب عني .
فقال بعطف :
— ليكن ، إني أدرك موقفك ..
— وتلقيت الموافقة في اليوم التالى . وكنت متلهفا فاستجابوا لي .
استأجرت شقة في نفس الشارع . تعاوننا على تأثيثها . وتم العقد في هدوء يناسب ظروف الحرب . وجمعنا بيت الزوجية فسد قلبى

واستعدت توازنى . وجاءت أنباء القتال مشجعة ولكن الحزن شق طريقه إلى قلوب كثيرة وارتفعت أسعار سلع لا حصر لها . واقترح على الشيخ حامد السبكي المشاركة في محل لبيع التحف والحلى فوافقته بحماس . وكان شريكى شقيقين مسيحين ، وكان محلهما يوجد بميدان الفندق . واقتضى العمل أن أبقى في المحل معهما سحابة النهار فأقبلت على العمل — لأول مرة في حياتى — بنشاط محمود . وكانت سامية تمضى نفس الوقت في المستشفى . وقد قالت لى :

— يجب أن تجعل من الحلبة مقامك الدائم ، أتم رحلتك إذا شئت ولكن لتكن العودة إلى هنا ..

فقلت بصراحة أيضا :

— قد أرى أن أرجع إلى وطنى كما رسمت لأنسخ كتابى ولا بأس من الإقامة هنا ..

فقلت بسرور :

— فى هذه الحال سأصحبك إلى وطنك فى الذهاب والإياب ، أما الإقامة الدائمة فلن نجد مثل الحلبة فى حضارتها ..

فترددت قليلا ثم قلت :

— نخل إلى أن عملى الجديد سيدر علينا رزقا وفيرا ، ألا يدعوك ذلك إلى التفكير فى الاستقالة من عملك فى المستشفى ؟

فضحكت ضحكة عذبة وقالت :

— العمل فى دارنا مقدس للمرأة والرجل على السواء ، عليك أن تفكر من الآن فصاعدا كرجل من رجال الحلبة !

فرتوت إلى بطنها بخنان وقلت :

— إنك فى حكم الأم يا سامية ..

فقلت بمرح :

— هذا شأنى أنا .

وتجلت الأمومة للعين والصيف يطوى آخر صفحاته . ووردت نسائم الخريف مترعة بالرطوبة وظلال السحب . وكل يوم أكتشف من عالم زوجتى المحبوبة جديدا . إنها معتزة بنفسها فى غير غرور ، مغرمة بالمناقشة ، مؤمنة صادقة وبقوة انشرح لها صدرى . لعل أعجب ما صادفته فى رحلتى هو إسلام الحلبة الذى يستعر التناقض بين ظاهره وباطنه . قالت لى :

— الفرق بين إسلامنا وإسلامكم أن إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد ، وإسلام بلا اجتهاد يعنى إسلاما بلا عقل ..

ذكرنى قولها بدروس أستاذى القديم . غير أنى كنت مغرما بالأثنى فيها وملاحظتها المشبعة لغريزى المحرومة . طاردت تلك الملاحظة بنهم غير مبال بما عداها غير أن شخصيتها كانت أصدق وأقوى من أن تذوب فى

ملاحة الأثني الناضجة . وجدت نفسي وجهها لوجه مع ذكاء لماع ،
ورأى مستنير ، وطيبة ممتازة . واقتنعت بتفوقها على في أمور كثيرة
فساءني ذلك ، أنا الذي لم أر في المرأة إلا متعة للرجل . وخالط ولعي بها
حذر وخوف ، ولكن الواقع طالبنى بالتكيف مع الجديد ، وملاقاته في
منتصف الطريق ، حرصا عليه ، وعلى سعادتي المتاحة . وقلت
لنفسى :

— إنه لسر أن تهينى نفسها بهذا السخاء ، وإننى لسعيد الحظ حقا !
ومداراة للخافى الدفينة قلت لها مرة :
— إنك يا سامية كنت لا يقدر بثمن ..
فقلت لى بصراحة :

— وفكرة الرحالة الذى يضحي بالأمان فى سبيل الحقيقة والخير
تفتنى كثيرا يا قنديل ..
وذكرتنى بمشروعى النائم . أيقظتنى من سبات الراحة والعسل . من
الحب والأبوة والحضارة . وقلت كأنما لأستحث المستنيرة للواقع :
— سأكون أول من يكتب عن دار الجبل .
فقلت ضاحكة :

— لعلك تجدها أبعد ما يكون عن الحلم .
فقلت بإصرار :

— إذن أكون أول من يبدد الحلم ..

وانطوى الخريف وهل الشتاء . ليس برده أقسى من برد وطنى
ولكنه غزير الأمطار ولا ترى شمسه إلا فى أوقات نادرة . وتشتد به
الرياح وتزجر ويقصف الرعد هائلا فيحفر أثره فى أعماق النفس .
وتحدث الناس عن الحرب التى لا تريد أن تنتهى وشاركتهم فى عواطفهم
بصدق فتمنيت أن تنتصر الحرية على الملك الإله وأن يولد وليدى المنتظر
فى أحضان الحرية والأمان . ولحقت سامية بى فى بيتنا ذات مساء عائدة
من عملها ، متألفة بفرحة أحييت نضارتها التى أضناها الحمل وهتفت :
— أبشر ، إنه النضر !

وراحت تخلع معطفها وتقول :

— سلم جيش الخيرة ، انتحر الملك الإله ، أمست الخيرة والمشرق
امتدادا للحلبة ، وكتبت الحرية والحضارة لشعوبهما ..
انتقلت الفرحنة إلى قلبى ، غير أن بعض المخاوف المتولدة من تجارب
الماضى جعلتنى أتساءل :

— ألا يؤدون ثمن الهزيمة بطريقة ما ؟

فقلت بحماس :

— مبادئ المرجع واضحة .. ولم يبق من عقبة قائمة فى طريق
الحرية إلا دار الأمان ..

فقلت ببراعة :

— إنها على أى حال لم تغدر بكم وأنتم تكابدون حربا طويلة ..

فقلت بحدة :

— هذا حق ، ولكنها عقبة فى طريق الحرية ..

وكان يوم عودة الجيش الظافر يوما مشهودا . خرجت الحلبة رجالا ونساء لاستقباله ورشقه بالزهور رغم برودة الجو وانهلال المطر . وتواصلت الاحتفالات على جميع المستويات أسبوعا كاملا . وسرعان ما لاحظت — ما بين الطريق ومحل عملى فى ميدان الفندق — أن حالا غريبة ، مناقضة للأفراح ، تسرى بقوة ، وبلا تردد ، ولا جذر . تطايرت إشاعات عن عدد القتلى والجرحى مصحوبة بالضيق والأسى . وورعت منشورات تتهم الدولة بأنها ضحكت بأبناء الشعب لا لتحرير شعوب المشرق والخيوة ولكن من أجل مصالح ملاك الأراضى والمصانع والشحير . وأنها كانت حرب « قوافل » لا مبادئ . وتلقيت منشورا آخر يتهم أصحاب المنشورات السابقة بأنهم أعداء الحرية وعملاء دار الأمان . ونتيجة لذلك قامت مظاهرات صاخبة تهاجم دار الأمان ، وتطعن فى اتفاقية التنازل لها عن عيون الماء . واجتمع الحاكم بمجلس أهل الخيرة وصدر قرار بالإجماع بإلغاء اتفاقية عيون المياه ، واعتبار العيون ملكية مشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديما . ومضى الناس من

جديد يتحدثون عن حرب جديدة محتملة بين دارى الحلبة والأمان !

وجاء الشيخ السبكي وأسرته للغداء على مائدتى ، وجلسنا نتحدث وتبادل الآراء ، وقلت للشيخ كالمحتج :

— إذا كان هذا الاضطراب نتيجة لنصر حاسم فكيف كان يكون

الحال لو جاء نتيجة لهزيمة ؟!

فأجابنى باسم :

— هذه هى طبيعة الحرية ..

فقلت بصراحة :

— إنها تذكرنى بالفوضى !

فقال ضاحكا :

— هى كذلك لمن لم يتعامل مع الحرية .

فقلت بمرارة :

— ظننتكم شعبا سعيدا ولكنكم شعوب تمزقها الخلافات الخفية ..

— لا دواء إلا المزيد من الحرية ..

— وكيف تحكم أخلاقيا على إلغاء اتفاقية عيون المياه ؟

فقال بجديّة :

— كنت أمس فى زيارة للحكيم مرهم الحلبى فقال لى إن تحرير البشر

أهم من هذه القشور .. (رحلة ابن فطومة)

فهمت :

— القشور !.. لا بد من الاعتراف بأساس أخلاق .. وإلا انقلب

العالم إلى غابة !

فقلت سامية ضاحكة :

— لكنه كان وما زال غابة !

وقال الإمام :

— انظر يا قنديل وطنك دار الإسلام فماذا تجد به ؟.. حاكم مستبد

يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاقي ؟ ورجال دين يطوعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاقي ؟، وشعب لا يفكر إلا في لقمته فأين الأساس الأخلاقي ؟!

اعترضت حلقي غصة فسكت . وعاهدتني ذكرى الرحلة فسألت :

— هل تقوم الحرب قريباً ؟

فقلت سامية :

— لن تقوم إلا إذا شعر أحد الطرفين بأنه أقوى أو إذا غلبه اليأس .

وتساءلت حماتي :

— لعلك تفكر في الرحلة ؟

فقلت باسمي :

— يجب أن أطمئن أولاً على سامية ..

وأنجيت سامية وليدها الأول في أواخر الشتاء . وبدلاً من أن أتأهب للرحيل استسلمت للحياة الناعمة ما بين البيت والحل . انغمست في الحلبة ، في الحب ووفرة الرزق والأبوة والصدقة وكنوز السماء والحدائق التي لا نهاية لحسنها . ما حلمت بشيء أجمل من أن يدوم الحال . وتوالت الأيام حتى صرت أبا لمصطفى وحامد وهشام . على أنني رفضت الاعتراف بالهزيمة ، وكنت أقول لنفسي في حياء :

— آه يا وطني .. آه يا دار الجبل !

وكنت أسجل بعض الأرقام في دفتر الحسابات بمحل التحف عندما وجدت أمامي عروسة !. ليس حلماً ما أرى ولا وهماً !. هي عروسة ترفل في وزرة قصيرة ومطرف مطرز بالآلئ مما ترتديه نساء الطبقة المحترمة في فصل الصيف . لم تعد شابة ، ولا منطلقة عارية ، ولكنها ما زالت متوجة بجمال وقور محتشم . كأنها معجزة انبثقت من المستحيل . كانت تقلب بين يديها عقداً من المرجان وأنا أتطلع إليها في ذهول . وحانت منها التفاتة إليّ فالتصقت عيناها بوجهي وهما يتسعان ونسيت نفسها كما نسيت نفسي . ناديت مبتهلاً :

— عروسة !

فرددت بذهول :

— قنديل !

وترامقنا حتى قررنا في وقت واحد أن نفيق من ذهولنا وأن نرجع إلى الواقع . قمت إليها فتصافحنا متناسين ما حل بشريكي من دهشة . وسألتها :

— كيف حالك ؟

— لا بأس ، كل شيء طيب ..

— مقيمة هنا في الحلبة ؟

— منذ تركت الحيرة !

وبعد تردد سألت :

— وحدك ؟

— متزوجة من رجل بوذي ، وأنت ؟

— متزوج وأب .

— لم أنجب أطفالا ..

— أرجو أن تكوني سعيدة ..

— زوجي رجل فاضل وتقى وقد اعتنقت دينه ..

— متى تزوجت ؟

— منذ عامين ..

— يئست من العثور عليك ..

— إنها مدينة كبيرة ..

— وكيف كانت حياتك قبل الزواج ؟

فلوحت بيدها بامتعاض وقالت :

— كان عام معاناة وعذاب !

فتمتعت :

— يا لسوء الحظ ..

فقالت باسمه :

— الختام حسن .. سنقوم برحلة إلى دار الأمان ، ومنها إلى دار

الجل ، ثم نسافر إلى الهند ..

فقلت بحرارة :

— لتحل بك بركة الله في كل مكان !

ومدت لى يدها فتصافحنا ، وتناولت مشتراها ، ثم ذهبت بسلام .

وجدت نفسي مطالبا باللقاء ضوء على الموقف أمام شريكي . وواصلت

عملي كأنما انفعالاتي ، مع اعتقاد راسخ بأن كل شيء قد انتهى .

واعترفت لسامية بما كان ، وببساطة ولا مبالاة . ولم أخل من شعور

بالإثم إزاء ما أضطرم به صدرى من اهتمام زائد . اهتز اهتزازة عنيفة

وتفجرت من جدران ينايع أسى وحنين . غمرته دفقات حارة من

الماضى حتى أغرقته . ولا أستبعد أن الحب القديم رفع رأسه ليبعث من

جديد ولكن الواقع الجديد كان أثقل وأقوى من أن تعبت به الرياح . غير أن الرغبة الكامنة في الرحلة استيقظت في روعة ووثبت إلى المقدمة متطلعة إلى الغد بإرادة صلبة لا تلين . وخشيت أن أندفع إلى تنفيذها فأجلب على نفسي الظنون ، فاتخذت قراراً بتأجيلها عاماً ، على أن أمهد لها في أثناء العام بما يهيئ الأنفس لتقبلها .
وقد كان .

وأذنت لى زوجتى المحبوبة بلا حماس وبلا فتور . وأوكلت عنى الشيخ الإمام ليحل محلى فى التجارة لحين عودتى ، وخصصت للرحلة من الدنانير ما يوفر لى حياة كريمة . ووعدت بالعودة إلى الحلبة عقب الرحلة ، على أن أصطحب زوجتى وأبنائى إلى دار الإسلام فأنسخ كتاب الرحلة وألقى الباقيـن على قيد الحياة من أهلى ، ثم نرجع إلى الحلبة . وأشبعـت أشواقى من سامية ومصطفى وحامد وهاشم ، وتركت زوجتى وهى تـستقبل فى جوفها حياة جديدة ..

دار الأمان

تحركت القافلة تشق ظلمات الفجر ، مستقبلة طلائع الصيف .
الشيخ السبكى قال لى عن جو دار الأمان :
— شتاؤها قاتل ، خريفها قاس ، ربيعها لا يحتمل ، فعليك بالصيف ..

وكالعادة ذكرتنى القافلة بالأيام الماضية ولكنى أمسيت كهلا يتأثر بقدر . وشعشع ضوء النهار فكشف صحراء جديدة ، كثيرة التلال ، تحدد جوانبها وديان منخفضة وتنتشر بأرجائها نباتات شوكية كالقنايف تتميز بخضرتها الياضـة ووحشيتها المثيرة .. وبعد أسايـع من السير بلغنا منطقة مياه العيون ، وهى كثيرة ، ولكنها لا تبرر نذر الحرب التى تهدد بها سلام دارين كبيرتين كالحلبة والأمان . وتواصل السير فى أرض آخذة فى الارتفاع التدريجى حتى عسكرنا فى هضبة النسر ، وقال قائد القافلة :

— سوف نتحرك عند منتصف الليل لنصل فجراً إلى سور دار الأمان ..

وواصلنا السير في جو لطيف حتى تراءى لنا السور العظيم على ضوء المشاعل . ووقفنا أمام البوابة . تقدم منا رجل بين حاملي المشاعل وصاح بصوت غليظ :

— أهلا بكم في الأمان عاصمة دار الأمان ، أهلا بكم في دار العدالة الشاملة !

وصمت الرجل دقيقة ثم قال :

— سيذهب التجار مع مرشد إلى المركز التجارى أما الرجال فيذهبون إلى مركز السياحة .

لم أذهب إلى فندق مباشرة كما فعلت في المشرق والحيرة والحلبة ولكنى تبعته المرشد إلى دار رسمية صغيرة متينة البنيان ، نظيفة ، تقوم في رعاية حراس مسلحين ، واقتدت إلى حجرة مضاعة بالمشاعل يتصدرها موظف وراء مكتب ، وعلى جانبيها حارسان كأنهما تمثالان . مثلت أمامه فسألنى عن اسمى ، وعمرى ، وما أحمل من دنائير ، وعن تاريخ رحلتى والهدف منها . ولذت بالصدق المطلق فقال الرجل :

— سأعتبرك من أهل الحلبة بعد أن تقبلتها دارا للعمل والإقامة الزوجية .

فلم أعترض ، فقال :

— سنسمح لك بإقامة عشرة أيام وهى كافية لما يريد السائح . فسألت :

— وإذا طابت لى الإقامة ورغبت فى مدها ؟

فى تلك الحال تقدم طلبا برغبتك لنظرفيه ، ونقرر قبوله أو رفضه . فأحيت رأسى راضيا مخفيا فى الوقت نفسه دهشتى ، فرجع يقول :

— وسنعين لك مرافقا ملازما ..

فسألته :

— هل يعرض على لأقبله أو أرفضه ؟

— بل هو نظام متبع لا مفر منه لخير الغرباء !

وصفق بيديه فدخل الحجرة رجل قصير فى الستين يرتدى نفس الملابس المكونة من سترة كأنها جبة قصيرة ووزرة تصل إلى الركبتين وصندل وطاقيّة كأنها خوذة من قطن أو كتان . قال الموظف وهو يردد رأسه بيننا :

— قنديل محمد العنابى سائح .. فلوكة مرشدك ومندوب مركز السياحة .

وغادرنا المركز وفلوكة يتبعنى صامتا كأنه ظلى وقد سلبنى روح المغامرة والحرية . وخطا خطوة واسعة فصار إلى جانبى فخضنا الظلام معا مستأنسين بأضواء النجوم ومشاعل حراس الأمن . قال

باقتضاب :

— نحن في الطريق إلى الفندق ..

ومن خلال ميدان مربع اقتربنا من الفندق الذي لاح على ضوء المشاعل فخما عظيما لا يقل روعة عن فندق الحلبة . أما الحجرة فكانت أقل في المساحة وأكثر بساطة ولكن لا ينقصها شيء من أسباب الراحة ، كما كانت بالغة النظافة . ولاحظت وجود سريرين بها جنباً إلى جنب فتساءلت بقلق :

— ما معنى وجود السرير الآخر ؟

فأجاب فلوكة بهدوء :

— إنه لي ..

فسألته باحتجاج لم أعن بإخفائه :

— أتنام معي في حجرة واحدة ؟

— طبعاً ، ما معنى أن نشغل حجرتين إذا كان يكفي أن نشغل

حجرة واحدة ؟

فقلت باستياء :

— قد يطيب لي أن أنفرد بحجرة !

فقال دون أن يخرج عن هدوئه :

— ولكن هذا هو النظام المتبع في دارنا !

فتساءلت متذمرا :

— إذن لن أحظى بالحرية هنا إلا في دورة المياه .

فقال ببرود :

— ولا هذه أيضا !

— أتعني ما تقول حقا ؟

— لا وقت لدينا للهذر .

فقطبت هاتفا :

— الأفضل أن ألغى الرحلة .

— لن تجد قافلة قبل مرور عشرة أيام .

وراح يغير ملابسه ويرتدى جلباب النوم ومضى نحو سريره وهو

يقول :

— كل شيء هنا جديد فهو غير مألوف فتحرر من أسر العادات

السيئة ..

وانهزمت أمام الواقع فغيرت ملابسي وركنت إلى فراشي ، وهرب

منى النوم طويلا من شدة الانفعال حتى غلبني التعب .

ومع الصباح بدأ الحرج ، غير أني أمر على الأشياء من الكرام ثم قادني

فلوكة إلى بهو الطعام فجلسنا إلى مائدة صغيرة وتناولنا فطورا من اللبن

والفطائر والبيض والفاكهة المسكرة ، وهو يمتاز بالجودة والكفاية

فالتهمته تاركا قدحا صغيرا من الخمر لم أمسه . قال لى فلوكة :

— ستقدم الخمر مع كل وجبة وهى ضرورية .

فقلت بإصرار :

— لا حاجة لى إليها .

فقال بهدوئه الملازم :

— عرفت كثيرين من المسلمين يدمنونها .

فابتسمت ولم أعلق فقال متسائلا :

— أتصدق حقا أن إلهك يهيم أن تشرب خمرا أو لا تشربها ؟

ولما رأى تغير وجهى قال برقة :

— معذرة !

وغادرنا الفندق معا للقيام بجولتنا السياحية الأولى . ألقى نظرة

شاملة ثم ارتد إلى طرفي فيما يشبه الخوف . هالنى الخلاء . الميدان وما

يتفرع عنه من شوارع ، كلها خالية ، لا أثر فيها لإنسان . مدينة

خالية ، مهجورة ، ميتة . إنها بالغة فى نظافتها وأناقتها وحسن هندامها ،

فى عمارتها الضخمة ، وأشجارها الباسقة ، ولكن لا أثر للحياة بها .

نظرت إليه منزعجا وسألته :

— أين الناس ؟

فأجاب بهدوئه المثير :

— إنهم فى أعمالهم ، نساء ورجالا ..

فسألته بدهشة :

— ألا توجد امرأة غير عاملة ؟ .. ألا يوجد عاطل ؟

— الجميع يعملون ، ولا يوجد عاطل ، لا توجد امرأة غير عاملة ،

أما العجائز والأطفال فسوف تراه فى حدائقهم ..

فقلت غير مصدق :

— الحلبة تموج بالنشاط ولكن شوارعها تكتظ دائما بالناس ..

فتفكر مليا وقال :

— نظامنا لا يشبه له بين النظم ، كل فرد يعد لعمل ثم يعمل ، وكل

فرد ينال أجره المناسب ، الدار الوحيدة التى لا تعرف الأغنياء

والفقراء ، هنا العدل الذى لم تستطع دار أخرى أن تحقق جزءا منه ..

وأشار إلى العمائر ونحن ننتقل من شارع خال إلى آخر :

— انظر ، كلها عمائر عظيمة ومتشابهة ، لا توجد سرايات ولا دور

منفردة ، ولا عمائر عظيمة وأخرى متوسطة ، الفروق فى الأجور

يسيرة ، الجميع متساوون إلا من يميزه عمله ، وأقل أجر يكفى لإشباع

ما يحتاجه الإنسان المحترم من مأوى وغذاء وكساء وتعليم وثقافة وتسلية

أيضا ..

عز على التصديق ، وقلت ما هو إلا كلام يحفظه عن ظهر قلب ،

غير أن منظر الشوارع والعمائر راغنى ، إنها لا تقل في هندستها عن الحديقة نفسها . ومضى إلى فلوكة إلى حديقة مترامية ، يبلغها القاصد فوق جسر كبير مقام على نهر عريض . لم أشهد حديقة في اتساعها وتنوع أشجارها وأزهارها . قال فلوكة :

— إنها حديقة من طعن بهم السن فيما وراء مرحلة النشاط والعمل . رأيت الطاعنين في السن من الجنسين ، يجدون في الحديقة مرتادا للترفيه ، وملاعب رياضية خفيفة ، ومجالس للسمر والغناء .
— في كل مدينة حديقة مماثلة ..

قال ذلك في ارتياح ومباهاة فقلت لنفسى إنه نظام حسن ورعاية إنسانية لم أجد لها مثيلا في الدور السابقة . ولفت نظرى كثرة المعمرين ممن جاوزوا الثمانين على أقل تقدير ، ولم أخف هذه الملاحظة عن فلوكة فقال من فوره :

— يمتاز الغذاء عندنا بوفرة عناصره الغذائية الأصلية مع تجنب الترف ، وممارسة الألعاب الرياضية في أوقات معينة خلال ساعات المساء ..

ومن طرائف ما شاهدت في الحديقة عروسين يقضيان شهر العسل ، أرمل وأرملة في الحلقة الثامنة ، وكانا يجلسان على شاطئ بحيرة صناعية مدلين ساقيهما في مائتها المكتسى بلون أخضر بما ينعكس على سطحه من

أوراق الشجر التى تحنو فوقه . واستأنست بالبشر فمكنت في الحديقة مدة طويلة حتى قال لى فلوكة :

— آن لنا أن نزور حديقة الأطفال ..

وكان يفصل بينها وبين حديقة العجائز ميدان متسع يكفى لأن تنشأ فيه مدينة صغيرة وترامت إلينا أصوات الصغار ونحن نفترق منها ، وكانت مترامية الأطراف كأنها دار مستقلة ، مكتظة بسكانها ما بين الطفولة والصبا ، وبها ملاعب لا حصر لها ، وأركان للدراسة والترفيه ، ومربون ومربيات ، فسألت صاحبي :

— أهى للهو أم للترفيه ؟

فأجاب :

— للآثنين معا ، وهنا نكتشف المواهب المختلفة ، ويتوجه كل بحسب استعدادده ، وكما يرسم له ، وينوب المربون والمربيات عن الآباء والأمهات المنهمكين في أعمالهم ..

فقلت ببراءة :

— ولكن لا شئ يعوض عن حنان الوالدين ..

فقال فلوكة بهدوء :

— حكم وأمثال لم يعد لها معنى في دار الأمان ..

لم يتسع النهار لزيارات جديدة فتناولنا الغداء في الفندق وكان مكونا

من شواء وقرنييط وخبز وتفاح ، ومضى بي إلى الميدان الكبير قبيل الغروب ، وقفنا تحت شجرة حور وهو يقول :

— آن لك أن ترى أهل الأمان ..

كان ثمة أربعة شوارع كبيرة تصب في الميدان ، ومع الغروب تجلت بشائر البشر كأنها ساعة البعث ، وسرعان ما راح كل شارع يقذف بجموع لا يحيط بها الحصر من النساء والرجال ، لكل طائفة زى بسيط واحد كأنها فرقة جيش ، وزغم أمواجهم المتتابعة الهادرة تقدموا في نظام ، لا يند عنهم أكثر من همس ، بوجوه جادة ومرهقة ، وخطى مسرعة ، كل إلى هدفه يسير ، للقادمين جانب وللذاهبين جانب ، لا اضطراب ولا مرح أيضا ، صورة مجسدة للمساواة والنظام والجدية أثارت إعجابي بقدر ما بعثت في القلق والحيرة . وبلغ الزحام ذروته ثم مضى يخف ويثد ولكن دون توقف حتى استعاد الخلاء مملكته الشاملة مع هبوط الظلام .

سألت فلوكة :

— إلى أين ؟

— المساكن !

— ثم يرجعون كرة أخرى للسهر ؟

— بل يبقون حتى الصباح ، أما الملاهي فتبعث فيها الحياة ليلة العطلة

الأسبوعية ..

فسألت بقلق :

— أيعنى هذا أن لينا ستقضى في الفندق ؟

فقال دون مبالاة :

— في فندق الغرباء ملهى تجد فيه ما تشاء من شراب ورقص وغناء ..

وقد سهرنا به ليلتنا ، فشهدت رقصا غريبا وسمعت غناء جديدا ، وبعض الألعاب السحرية ، ولكنها لم تكن مختلفة اختلافا جذريا عما شهدت وسمعت في الحلبة ..

وفي اليوم التالى زرنا مصانع ومتاجر ومراكز للتعليم والطب . الحق أنها لم تكن تقل عن أمثالها في الحلبة عظيمة ونظاما وانضباطا ، واستحققت دائما إعجابي وتقديرى وهزت عقيدتى الراسخة في تفوق دار الإسلام في الحضارة والإنتاج ، غير أنى لم أرتح لتجهم الوجوه وضلابتها وبرودها المخيم ، هذه السجايا التى جعلت من مرافقى فلوكة شخصا لا غنى عنه ولا مسرة فيه .

وزرنا قلعة تاريخية جلييلة الشأن حليت جدرانها بالنقوش والصور .

قال فلوكة :

— في هذه القلعة دارت آخر معركة انتهت بهزيمة الملك المستبد

(رحلة ابن فطومة)

وانتصار الشعب ..

ومضى نى إلى بناء ضخيم كالمعبد وهو يقول :

— إليك محكمة التاريخ ، هنا حوكم أعداء الشعب وقضى عليهم

بالموت ..

فسأله عمن يعنى بأعداء الشعب . فقال :

— ملاك الأرض وأصحاب المصانع والحكام المستبدون ! ، لقد

انتصرت الدولة بعد حرب أهلية طويلة ومريرة .

وتذكرت ما أخبرنى به أستاذى الشيخ مغاغة الجبيل من أنه لم يستطع

أن يواصل رحلته بسبب نشوب حرب أهلية فى دار الأمان . وتذكرت

أيضا تاريخ الحلبة الدامى فى سبيل الحرية . وهل كان تاريخ الإسلام فى دارنا

دون ذلك دموية وآلاما ؟ . فماذا يريد الإنسان ؟ . وهل هو حلم واحد

أو أحلام بعدد الدور والأوطان ؟ . وهل حقا وجد الكمال بدار

الجبيل ؟ !

وسألنى فلوكة :

— هل تمضى الليلة فى الملهى كأمس ؟

فأعلنت عن فتورى بالصمت فقال مشجعا :

— غدا تحتفل الدار بعيد النصر ، وهى يوم مشهود !

وتناولنا العشاء ثم جلسنا فى بهو المدخل بالفندق نتلقى نسائم الصيف

اللطفة . وقلت لفلوكة :

— إنى رحالة كما ترى ، وقد جرت العادة فى بلادى أن يسجل

الرحالة أنباء رحلته ، وعلى ذلك تلزمنى معلومات كثيرة لا تكفى

المشاهد الإمام بها :

فأصغى إلى بهدوء دون أن ينبس فقلت :

— يهمنى أن أجتمع بحكيم من حكماء داركم فهل تستطيع أن تحقق

لى رغبتى ؟

فأجاب :

— حكماء دار الأمان مستغرقون بواجباتهم ولكننى أستطيع أن

أمدك بما تشاء من معلومات !

فهضمت خيبتى بسرعة مصمما على خوض التجربة . قلت .

— أريد أن أعرف نظامكم السياسى ، كيف تحكمون ؟

فأجاب دون تردد :

— لنا رئيس منتخب ، تنتخبه الصفوة التى قامت بالثورة ، وهى

تمثل صفوة البلدان جميعا من علماء وحكماء ورجال الصناعة والزراعة

والحرب والأمن ، ويتولى منصبه بعد ذلك مدى الحياة ، ولكنهم

يعزلونه إذا انحرف !

ذكرنى ذلك بنظام الخلافة فى دار الإسلام ولكنه ذكرنى أيضا بماسى

تاريخنا الدامي فسألته :

— ما هي صلاحياته ؟

— إنه المهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفن ،
إذ أن الدولة عندنا هي صاحبة كل شيء ، والرعايا موظفون كل يعمل
في حقله لا فرق في ذلك بين الكناس والرئيس ..
— ألا يعاونه أحد ؟

— مستشاروه ، والصفوة التي انتخبته ، ولكنه صاحب الرأي
الأخير ، ولذلك فنحن في مأمن من الفوضى والتردد ..

فترددت قليلا ثم قلت :

— ولكنه أقوى من أن يحاسب إذا انحرف ..؟

فخرج من بروده لأول مرة وقال بحدة :

— القانون هنا مقدس !

ثم مواصلا قبل أن أنبس :

— انظر إلى الطبيعة ، أساسها القانون والنظام لا الحرية !

— ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلع دائما إلى الحرية ..

— إنه صوت الشهوة والوهم ، لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن

قلبه إلا بالعدل فجعلنا من العدل أساس النظام ، ووضعنا الحرية تحت
المراقبة ..

— أهذا ما يأمر به دينكم ؟

— نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدخر احتياجاته .

— الأرض !؟

— وهي لم تفعل لنا شيئا ولكنها خلقت لنا العقل وفيه الغنى عن أى
شيء آخر .

ثم واصل بكبرياء :

— دارنا هي الدار الوحيدة التي لن تصادفك فيها أوهام أو خرافات !

استغفرت الله في سرى طويلا . قد يجد الإنسان لوثنية دار المشرق

عذرا ، ومثلها دار الحيرة ، ولكن دار الأمان بحضارتها الباهرة كيف

تعبد الأرض ؟.. وكيف تبوء عرشها رجلا منها فتزله منزلة الملك

الإله ؟. إنها دار عجيبة . أثارت إعجابي لأقصى حد ، كما أثارت

اشمئزازي لأقصى حد . ولكن ساءني أكثر ما آل إليه حال الإسلام في

بلادى ، فالخليفة لا يقل استبدادا عن حاكم الأمان ، وهو يمارس انحرافات

علانية ، والدين نفسه تهرأ بالخرافات والأباطيل ، أما الأمة فقد افترسها

الجهل والفقر والمرض ، فسبحان الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ونمت ليلتها مرهقا ورأيت أحلاما مزعجة . وأشرق يوم العيد . ولما كان

يوم عطلة عامة فقد تبدت العاصمة حية دافئة طيلة النهار . وقادنى فلوكة

إلى ميدان القصر . رأيت القصر قلعة منيفة ، وتحفة معمارية لا نظير

لها ، يمتد أمامه ميدان هائل يتسع لألوف الألوف من البشر . اتخذنا موقعا وسطا وأخذ الناس يتوافدون ويقفون في نظام صفوفها صفوفها فوق محيط الدائرة . تفرس في الوجوه بحب استطلاع شديد . يا لهم من صور مكررة في الملابس واللون والوزن . بشرة لم تلفحها شمس محرقة ، وقامات قوية ونخيلة معا ، ووجوه أشرقت بالابتسام تحية للعيد رغم تجهمها الدائم فيما عدا ذلك من أيام . جمال الوجوه في الحلبة أرفع درجة بلا شك ولكن المساواة هنا تدعو للعجب ، ولذلك تقرأ في الأعين طمأنينة راسخة وشيثا غامضا ينذر بالخموم .

ونفخ في بوق إيدانا ببدء الاحتفال .

ومن أقصى نقطة في محيط الدائرة المواجهة للقصر تقدم موكب حاملات الورود ، من فتيات متألقات بالشباب ، يسرن في أربعة صفوف نحو القصر ، ثم وقفن في طابورين متقابلين أمام مدخله الكبير . واندفعت الجموع تردد نشيدا واحدا ، في قوة مؤثرة وجمال أيضا . تصاعد الصوت في انسجام جامعا الحشود في لحظة وجدانية واحدة ، مستوحاة من ذكريات حميمة مشتركة . وانتهى بتصفيق حاد استمر دقيقتين . ومبني فلوكة بكوعه وهمس في أذني :

— الرئيس قادم ..

نظرت نحو القصر فرأيت جماعة تتقدم من أعماق باهتة ، وكلما

تقدمت وضحت معالمها . الرئيس يتقدم تتبعه جماعة من الصفوة الحاكمة . وراح يمشى بجذء محيط الدائرة ليتبادل التحيات مع الجموع عن كئيب . ولما مر أمامي لم يكن يفصله عن موقفي أكثر من أشبار . رأيته متوسط الطول مفرطا في البدانة غليظ القسما واضحا . ولم تكن حاشيته دونه في البدانة فلفت ذلك انتباهي بشدة ، وأيقنت أن الرئيس ورجاله يحظون بنظام غذائي خاص يشد عما تخضع له جموع الشعب . وتخيلت ما يمكن أن يدور بيني وبين فلوكة من حوار عن ذلك . سيقول لي إن نظام الأمان لا يخلو من امتيازات يخضون بها الأفراد تبعا لتفوقهم في العلم والعمل ، وأنه من الطبيعي أن يكون على رأس هؤلاء الرئيس المنتخب ومعاونوه . وأن هذه الامتيازات تمنح في حدود ضيقة لا تسمح بوجود فوارق طبقية ولأسباب معقولة لا صلة لها بامتيازات الأسر والقبائل والطبقات في المجتمعات الأخرى التي يسودها الظلم والفساد . والحق أني لم أجد في ذلك ما يخرق القانون العادل السائد في دار الأمان ، ولم أجد به وجه شبه بما يجري في الدور الأخرى وعلى رأسها دار الإسلام نفسها من تفاوت فاحش ظالم في معاملة الناس . وخطر لي أني أرى الأمور بوضوح أكثر من ذي قبل . أجل ، إن لدار الحلبة هدفا وقد حققته بدقة ، وإن كذلك لدار الأمان هدفا وقد حققته بدقة ، أما دار الإسلام فهي تعلن هدفا وتحقق آخر باستهتار

وبلا حياء وبلا محاسب ، فهل يوجد الكمال حقا في دار الجبل ؟
رجع الرئيس إلى منصة أمام القصر فصعد إليها . ومضى يخطب
شعبه ، عارضا عليه تاريخ ثورته ، وموقعة نصره ، وما أنجز له في
مجالات حياته المختلفة . ركزت على متابعة العواطف المتبادلة بين الرجل
والناس ، فلم أشك في حماسهم ، وتلاقيهم في آمال واحدة ، ورؤية
متماثلة . ليسوا بالأمة المقهورة المغلوبة على أمرها ، ولا الفاقدة الوعي
والتربية ، لعل ما ينقصها شيء هام ، لعل سعادتها تشوبها شائبة ، رأيتها
أمة متماسكة وذات رسالة لا تخلو من إيمان من نوع ما .
عندما انتهى الرئيس من خطابه اخترقت الميدان ثلة من الفرسان
شاهرة رماحها ، وقد غرست في أسنة الرماح رغوس آدمية منفصلة عن
أجسادها . غاص قلبي من فظاعة المنظر ، ونظرت نحو فلوكة ، فقال
باقتضاب :

— خونة متمردون !

لم يتسع الوقت للحوار . وعاد الشعب يردد النشيد ، وانتهى
الاختفال بهتاف شامل .

وعدنا إلى الفندق لتناول الغداء . وفي أثناء ذلك قال فلوكة :

— أزعجك منظر الرغوس المقطوعة ؟.. ضرورة لا مفر منها ،
نظامنا يطالبنا ألا يتدخل إنسان فيما لا يعنيه وأن يركز كل فرد على

شئونه ، فالمهندس لا يجوز أن يثرثر في الطب ، والعامل لا يجوز أن
يخوض في شئون الفلاح ، والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخلية
أو الخارجية ، ومن تمرد على ذلك فجزاؤه ما رأيت !

أدركت أن الحرية الفردية عقوبتها الإعدام في هذه الدار ، واعترتني
لذلك كآبة شديدة ، وحنقت على فلوكة لإيمانه المتعصب بما يقول .
وسهرنا ليلا في سيرك كبير اكتظ بالناس ، وشهدنا من أفانين
الألعاب والغناء والرقص ما يسلى ويسر ، وتناولنا عشاء من الشواء
والفواكه ، وشرب فلوكة ، ودعاني للشرب ، ولما لم أستجب اضطر
إلى الاعتدال وهو كظيم . وغادرنا السيرك عند منتصف الليل ، وسرنا
على مهل تحت ضوء القمر في شوارع معمورة بالمترنخين . وطاب لي
الحديث فقلت :

— ما أجمل لهُوكم !

فقال باسم لأول مرة إما لمناسبة العيد أو الخمر .

— وما أجمل جدنا !

ورآني أيتسم فلم يرتح لابتسامتي وقال :

— أترى الحياة في وطنك الأول أو وطنك الثاني خيرا من حياة

الأمان ؟

فقلت بمرارة :

— دغ وطنى الأول فأهله خانوا دينهم ..

فقال بخشونة : ..

— إذا لم يتضمن النظام الوسيلة لضمان تطبيقه فلا بقاء

له .

— إننا لم نفقد الأمل بعد ..

— إذن لم كانت الرحلة إلى دار الجبل ؟

فقلت بفطور :

— العلم نور ..

فقال ساخرا :

— ما هي إلا رحلة إلى لا شيء ..

وتتابعت الأيام مضجرة . وأخذ الناس في الفندق يتحدثون عن العلاقة بين الحلبة والأمان بنبرة إشفاق وتشاؤم . وسألت فلوكة عما يكمن وراء ذلك فقال :

— في حربهم مع الحيرة تظاهروا بالاعتراف بحقنا في عيون المياه ، ولما انتصروا سحبو اعترافهم بكل خسة ودناءة ، واليوم يقال إنهم يجندون جيشا من البلدين اللتين استولوا عليهما ، المشرق والحيرة ، وهذا يعنى الحرب ..

واستحوذ على القلق فسألته :

— وهل تقوم الحرب حقا ؟

فأجاب ببرود :

— نحن على أتم استعداد ..

فحام فكرى حول سامية والأبناء ، وتذكرت مأساة عروسة وأبنائها . وانتظرت على لهف انتهاء الأيام العشرة . ومرت يوم ويوم دون حدث فاطمأن قلبي وأخذت أستعد للرحيل . وفي تلك الآونة خطر لي أن أسأل فلوكة عن الرحالة البوذى وزوجته عروسة اللذين زارا الأمان منذ عام فأكد لي أنه يمكن أن يمدني بمعلومات عنهما عندما نذهب إلى المركز السياحي في آخر أيام الإقامة . وأنجز الرجل وعده ، وراجع الدفاتر بنفسه ، وقال لي :

— مكث الزوجان في دار الأمان عشرة أيام ثم سافرا في القافلة الذاهية إلى دار الغروب ، غير أن الزوج مات في الطريق ودفن بالصحرَاء أما الزوجة فواصلت رحلتها إلى دار الغروب ..

هزني الخبر ، وتساءلت عن مكان عروسة وحالها ، وهل أجدها في دار الغروب أو تكون رحلت إلى دار الجبل أو رجعت إلى المشرق ؟! وعند الفجر كنت ومتاعى في محط القافلة . صافحت فلوكة وقلت

له :

— أشكر لك مرافقتك لى الطيبة وما أسديته إلى من فوائد .

فشد على يدي صامتا . ثم همس فى أذنى :

— قامت الحرب بين الحلبة والأمان ..

اضطربت لدرجة منعنى من الاستمرار فى الكلام . . حتى البادئ

بالحرب لم أسأل عنه .

وهيمت على ذكريات سامية والأبناء ، وحتى الوليد المنتظر ..

كار الغروب

انغمست القافلة فى ظلمات الفجر وأنا أنظر إلى لا شىء بقلب
مشحون بالقلق . لم يكتب لى أن أرحل مرة بقلب مطمئن ونفس
صافية ولكن تغشاني دائما المخاوف . خيالى المحموم يحوم
حول الحلبة داعيا بالسلامة لسامية ومصطفى وحامد وهشام ،
متسائلا فى حيرة عن نتيجة ذلك الصراع الدامى بين أقوى دارين .
ورفعت بصرى إلى حديقة السماء المزهرة وغمغمت « كن معنا
يا إله السماوات والأرض » . وأشرقت الأرض بنور ربها فرأيت
صحراء مترامية مستوية وجوا صيفيا حنونا ، كما رأيت الغزلان
تشب هنا وهناك حتى أطلقت عليها صحراء الغزلان . وامتد السفر
شهرافعا نينا عناء غير ذى عنف يبشر بالحسنى . وفى هزيع من الليل
بشرنا صوت بآئنا بلغنا حدود دار الغروب . وكان القمر نصفًا ،
والجو مفضضا ولكنى لم أر سورا ، ولا مندوب الجمرك . وقال
صاحب القافلة ضاحكا :

— هذه دار بلا حراس فادخلوها بسلام آمين ..

فسأله :

— وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء ؟

فقال وهو يواصل الضحك :

— سينبئك نور النهار بما تسأل عنه ..

وانتظرت مشوقا حتى أشرقت الشمس . لعلها أجمل شمس عرفتها في حياتي ، فهي نور بلا حرارة أو أذى ، يزفها نسيم عليل ورائحة طيبة . وترامت أمامي غابة غير محدودة . ولكن لم يقع بصري على بناء ، كوخ أو بيت أو قصر ، كما لم أشاهد أحدا من الناس . لغز جديد علي أن أكتشفه ولكن ماذا أصنع بمتاعى ؟ . ورجعت إلى صاحب القافلة فقال :
— ضعه في مكانه ولا تخف ، اذهب آمننا وعد آمننا ..

واخترت موضعا قريبا من عين الماء فجعلتها علامة ، ووضعت الحقائق ، وأودعت الدنانير حزاما تمنطقت به تحت الجلباب . ورحلت أتجول مستكشفا . أسير فوق أرض معشوشبة ، نثرت على أديمها أشجار النخيل والفاكهة ، تتخللها عيون مياه وبحيرات . وخيل إلى في أول الأمر أنها خالية من البشر ، حتى رأيت أول آدمي متربعا تحت نخلة ، كهلا أبيض الشعر مرسل اللحية ، صامتا وناعسا أو غائبا ، متوحدا بلا قرين أو قرينة ، فدنوت منه كأني عثرت على كنز وقلت له :

— السلام عليك يا أخى ..

ولكن لم يبد عليه أنه سمعنى فكررت السلام وقلت :

— إني رحالة وفي حاجة إلى كلمة تضيء لي الطريق ..

فلم تند عنه نأمة وظل غائبا في ملكوته فسأله :

— ألا تريد أن تتحدث معي ؟

فلم يظهر عليه أى رد فعل وكأنا لا وجود لي فأيسنى منه ، فتحولت عنه مرغما وواصلت السير . وكلما أوغلت صنادفنى آخر على مثل حاله ، رجل أو امرأة ، فأبذل المحاولة من جديد ولا ألقى إلا الرفض أو التجاهل ، حتى خيل إلي أنها غابة من الصم البكم العمى . ألقى نظرة شاملة مفتونة على الجمال من حولى وغمغمت « إنها جنة بلا ناس » . تناولت من الفواكه الساقطة على الأرض حبات حتى شبع ، ثم رجعت إلى متاعى فرأيت التجار وهم يملئون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب . ولما رآنى صاحب القافلة ضحك وقال :

— هل استطعت أن تستنطق أحدا منهم ؟

فحركت رأسى بالنفى فقال :

— إنها جنة الغائبين ، لكن خيراتها مبذولة بلا حساب ..

فسأله باهتمام :

— ماذا تعرف عنهم ؟

فقال دون مبالاة :

— يوجد في الغابة شيخ يقصده القاصدون فلعله يمدك بما تسأل عنه ..

فأحيا أمل الرحالة من جديد فقلت له وأنا ثمل بنشوة فوز :

— ما أجمل جو الصيف ها هنا .

فقال الرجل :

— هكذا جميع الفصول !

ونفضت مع الشمس نشيطا متفائلا فسمعت أحد التجار يقول :

— سنظل نذهب ونجىء ما بين الأمان والغروب حتى تنتهى الحرب

وتفتح الطرق للقوافل من جديد ..

وانطلقت إلى عمق الغابة أتقدم ساعات بلا توقف حتى ترامى إليّ

صوت غناء جماعى . اتجهت نحو الصوت حتى تراءى لعيني منظر

جماعة من نساء ورجال تجلس فوق الأرض على هيئة هلال ، بين يدي

شيخ هرم يتخذ مجلسه تحت شجرة وارفة ، وكأنه يعلمهم الغناء وهم

يرددون الصوت في حنان بالغ . جعلت أقرب حتى قبع وراءهم ،

ونظرت إلى الرجل فرأيت شيخا عاريا إلا مما يستر العورة كأن هالة من

نور تحديق بوجهه الوضىء وعينيهِ الجذابتين . وختم الغناء ، أو الدرس ،

فقام الرجال والنساء وتفرقوا في هدوء . لم تكن عروسة بين النساء ،

ولم أعثر عليها أمس ولكن رائحتها كانت تغالط في الجو روائح الفاكهة

والأعشاب الخضراء . لم يبق في المكان إلا الشيخ وأنا . وقفت في

خشوع بين يديه فنظر إليّ بعينيهِ الصافيتين فشعرت بأننى موجود .

تلاشت الغربة التي خنقتني في الغابة أمس فانتصيت إلى دار الغروب ولم

تضع الرحلة سدى . رفعت راحتي إلى جينيهِ تحية وقلت :

— إنك ضالتي يا مولاي .

فسألني وهو يتفرس في وجهي :

— قادم جديد ؟

— أجل ..

— ماذا تريد ؟

— رحالة يمضى من دار إلى دار وراء المعرفة .

فأغمض عينيهِ دقيقة ثم فتحهما وقال :

— غادرت دارك للمعرفة ، ولكنك حدثت عن الهدف مرات ،

وبددت وقتا ثميناً في الظلام ، وقلبك موزع بين امرأة خلفتها وراءك

وامرأة تجد في البحث عنها !

ذهلت حقاً ورمقته بخوف ثم قلت :

— كيف تأتّى لك أن تقرأ الغيب ؟

فقال ببساطة :

— هنا يفعلون ذلك وأكثر .

— أنت حاكم هذه الدار ؟

— لا حاكم لهذه الدار ، وأنا مدرب الحائرين ..

فقلت بحماسة :

— زدنى فهما !

— كل شيء مرهون بوقته ..

فأومأت إلى ما حولي وقلت :

— لماذا لا يرددون تحية أو يسمعون كلمة ؟

فقال بهدوء :

— حياتهم هنا موافقة للحق ومفارقة للخلق ..

— يبدون كالغائبين ؟

— باب الصبر على مرارة البلوى لإدراك حلاوة النجوى .

فتفكرت فيما سمعت ثم سألته :

— وما غايتهم من وراء ذلك ؟

— جميعهم مهاجرون ، من شتى الأنحاء يجيئون إعراضا عن الهواء

الفاسد ، وليعدوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل ..

فطربت للاسم وقلت بحبور :

— إذن سأجد رفاقا في رحلتى الأخيرة ..

فلاحت ابتسامة في عينيه وقال :

— عليك أن تعد نفسك مثلهم .

— كم يتطلب ذلك من وقت ؟

— كل بحسب قدرته ، وقد تخور الهمة فينصح بالبقاء في الغروب ..

فانقبض صدري وسألته :

— وإذا أصر على الذهاب ؟

— يخشى أن يعامل هناك كالحيوان الأعجم !

فدهمتني حيرة شديدة وسألته :

— وكيف تعدهم للرحلة ؟

فقال بوضوح :

— كل شيء يتوقف عليهم ، إنى أدر بهم بالغناء تمهيد الطريق ، ولكن

عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها .

فقلت بحيرة :

— لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل .

— هذا شأن كل جديد .

فسألته بضراعة :

— ما معنى أن أستخرج من ذاتي القوى الكامنة فيها ؟

— معناه أن في كل إنسان كنوزا مطمورة عليه أن يكشفها . خاصة

إذا أراد أن يزور دار الجبل .

— وما العلاقة بين هذا ودار الجبل ؟

فصمت مليا ثم قال :

— إنهم هناك يعتمدون في حياتهم على هذه الكنوز فلا يستعملون
الحواس ولا الأطراف !

فقلت برجاء :

— هلا وهبتنى فكرة عن هذه الكنوز ؟!

— لا تتعجل .

— ومتى أعرف أننى وفقت ؟

فقال بهدوء :

— عندما يتأق لك أن تطير بلا أجنحة !

فأمعنت النظر فيه بذهول ، ثم قلت متأثرا بجده وصدقه :

— لعلك تحدثنى على سبيل المجاز .

— بل هى الحقيقة دون زيادة .. الدار هناك تقوم على هذه القوى ،
وبها شارفت الكمال ..

فقلت بتسليم :

— ستجدنى من المخلصين ..

— سيكون جزاؤك المكوث فى دار الجبل .

فقلت بعجلة :

— ما هى إلا زيارة أرجع بعدها إلى دارى .

فقال بيقين :

— سوف تنسى بها الدنيا وما فيها .

— لكن وطنى فى حاجة إلى ..

فسألنى متعجبا :

— وكيف تركته ؟

— قمت بالرحلة بأمل أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه .

فقال الشيخ بامتعاض :

— إنك من الهارين ، تعللت بالرحلة فرارا من الواجب ، لم يهاجر

أحد إلى هنا إلا بعد أن أدى واجبه ، ومنهم من خسر زهرة عمره فى

السجن فى سبيل الجهاد لا بسبب امرأة ..

فهتفت جزعا :

— كنت فردا حيال طغيان شامل ..

— هذا عذر الخائر !

فتوسلت إليه قائلا :

— ليكن من أمر الماضى ما يكون فلا تثبط همتى ولا تبدد حياتى

هباء ..

فلاذ بالصمت حتى اعتبرت الصمت رضى ، وتشجعت قائلا :

— ستجدنى من أهل العزم والإخلاص ..

وقمت حانيا رأسي في خشوع . وخطر لي خاطر فترددت جافلا من
إعلانه ، وإذ به يقول :

— تريد أن تعرف ماذا فعل الدهر بعروسة !

فذهلت كما ذهلت حين انتزع ماضي من الظلمات . وساءلت
نفسى ترى أهكذا يتفاهمون في دار الجبل ؟. أما هو فقال :

— لقد سبقت إلى دار الجبل !

فسألته بدهشة :

— وفقت في خوض التجربة ؟

فقال باسما :

— بفضل ما عانت في حياتها من آلام ..

ولما همت بالذهاب تساءل :

— ما فائدة الدنانير تكتنرها حول وسطك ؟

رجعت إلى محط القافلة فأودعت الدنانير إحدى الحقائق . وقال لي
صاحب القافلة :

— نحن ذاهبون فجر الغد .

فقلت دون مبالاة :

— إني باق .

وفي أعقاب الفجر كنت أول من قصد مجلس مولاي . ولحق بي نفر

من القادمين الجدد فجلسنا على هيئة هلال ، عرايا إلا بما يستر العورة ،

وقال الشيخ :

— أحبوا العمل ولا تكثرثوا للثمرة والجزاء .

وضمت قليلا ثم واصل حديثه :

— أول درجة في السلم هي القدرة على التركيز الكامل ..

وصفق بيديه ثم قال :

— بالتركيز الكامل يغوص الإنسان في ذاته .

وزاح يغنى ونحن نردد غناؤه . وقد رفعني الغناء إلى عالم آخر .

وعند كل مقطع تدفق من وجداني ينبوع قوة .

وعدت إلى مجلسي تحت نخلة وشرعت في التجربة . صارعت

التركيز وصارعني . والتحمت في معركة حامية مع صور حياتي

الماضية . تغزوني بالحب والوفاء وأطاردها بمر العناء وتمر الأيام مليئة

بالعذاب والعزم والأمل . وعند بداية كل درس ، قبل الغناء والترديد ،

يوصينا بحب العمل وإهمال الثمرة والجزاء ويقول :

— بذلك توثق المودة بينكم وبين روح الوجود .

كما يوصينا بالتركيز قائلا :

— إنه مفتاح أبواب الكنوز الخفية .

ويقول بيقين :

— هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفية يكشفون الحقائق

ويزرعون الأرض وينشئون المصانع ويحققون العدل والحرية والنقاء الشامل .

وأرجع إلى عزلتي وأنا أتخيل اليوم الذى أسلط فيه قواى الكامنة على كل معوج فى وطنى لأنشئه من جديد مقاما صالحا لقوم صالحين . وتكرر الأيام وأنسى الزمن فلا أدري كم مضى على من أيام وشهور ، ويمتلئ وعائى بالثقة ، وتبرق فى ظلماته بوارق الإلهام . واستيقظت ذات يوم قبل الفجر مبكرا عن ميعادى المعتاد . وذهبت من فورى إلى الشيخ فوجدته جالسا تحت ضوء النجوم فاتخذت مجلسى وأنا أقول :

— ها أنذا يا مولاي .

فسألنى :

— ماذا جاء بك ؟

فقلت بلباس :

— نداء صدر منك إلى .

فقال راضيا :

— هذه خطوة أولى للنجاح وأول الغيث قطر .

وصممتنا فى انتظار قدوم الرفاق حتى اكتمل هلالنا . وبدا وجه الشيخ فى ضوء الشروق واجما . وشرع فى الغناء كالعادة فزددنا الغناء ولكننا لم نثمل بالشروع . وقبل أن ننصرف عنه قال :

— الشر قادم فتلقوه بالشجاعة الجديرة بكم ..

ولم يضيف إلى ذلك كلمة متجاهلا أعيننا المتسائلة .. واستيقظنا غداة اليوم التالى على جلبة وصهيل خيل . ونظرنا فرأينا المشاعل منتشرة فوق الأرض كالنجوم ، رأينا جيشا من فرسان ورجالة يطوق دار الغروب دون سابق إنذار . وهرع الجميع إلى موقع الشيخ وجلسوا حوله صامتين هادئين . وراحوا يغنون حتى أشرقت الشمس وعند ذاك قدم قائد يتبعه حراس حتى وقف أمامنا . من النظرة الأولى اكتشفت أنهم من جيش دار الأمان ، وتساءلت فى قلق ترى هل انتصروا على الحلبة ؟ . وقال القائد :

— بالنظر إلى الحرب الدائرة بيننا وبين الحلبة ، وبناء على ما بلغنا من أن الحلبة تفكر فى احتلال دار الغروب لتطوق دار الأمان ، فقد اقتضت دواعى الأمن أن نحتل أرضكم .

ساد الصمت ولم يعلق أحد من جانبنا بكلمة فقال القائد :

— إذا أردتم البقاء فعليكم أن تزرعوا الأرض وأن تنضموا إلى البشر العاملين وإلا فسوف نعد لكم قافلة تحملكم إلى دار الجبل .

ساد الصمت مرة أخرى حتى خرقة الشيخ موجهها خطابه لنا :

— اختاروا لأنفسكم ما تحبون ..

فاستبقت الأصوات هاتفة :

— دار الجبل .. دار الجبل ..

فقال الشيخ محذرا :

— ستلقون عناء لنقص تدريكم ..

فأصروا هاتفين :

— دار الجبل .. دار الجبل ..

فقال القائد بحزم :

— من يعثر عليه منكم ها هنا بعد قيام القافلة سيعتبر أسير حرب !

البداية

عند الفجر غادرت القافلة دار الغروب . لأول مرة يستأثر بها الرحالة والمهاجرون ولا يرى بها تاجر واحد . ولفنا قلق وحزن وإشفاق ، لما حل بدار الغروب ، ولانقطاعنا الإجباري عن التدريب ، وتمنيت أن تسنح في الطريق فرص لمعاودة التركيز والاجتهاد تخفيفا من العناء المنتظر . وكشف الشروق عن صحراء مستوية ، تكثر في أرجائها عيون المياه . وسرنا شهرا حتى اعترض سبيلنا الجبل الأخضر ممتدا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان علينا أن نعبر الجبل صعودا وهبوطا ، وترامى أمامنا فج واسع يتدرج في صعوده تدرجا هينا رقيقا فاتجهت إليه القافلة . وتساقط الرذاذ في أوقات متقطعة فأنس من وحشتنا . وجعلنا نسير بالنهار ونعسكر في الليل حتى بلغنا السطح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع . كان سطحنا عريضا غزير الأعشاب ، وعند حافته قال الشيخ وهو يشير بيده :

— هاكم دار الجبل .

كان يشير إلى جبل آخر يفصل بينه وبين الجبل الأخضر صحراء ، وعلى سطحه قامت الدار عالية مترامية هائلة القباب والمباني تنطق بالعظمة والسمو . نظرت صوبها بذهول وافتتان . لم تعد حلما ولكنها حقيقة ، وحقيقة قريبة ، فليس بيننا وبينها إلا أن نهبط السفح ونقطع الصحراء القصيرة ثم نصعد الجبل الآخر فنجد أنفسنا أمام مدخلها ، ومدير الجمرك يقول لنا :

— أهلا بكم في دار الجبل ، دار الكمال ..

وقل صبرنا وتعجلنا الرحيل فهبطت القافلة سفح الجبل في أسبوعين حتى بلغنا الصحراء . ودهمتنا دهشة إذ ترامت الصحراء أمامنا كأنها بلا نهاية ولم نكد نرى الجبل الآخر من شدة إيغاله في البعد . عجبت لخداع البصر ، وأيقنت من أنه ستمضى أيام وأسابيع قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذى تقوم على سطحه دار الجبل . وسرنا أسابيع وأسابيع ، وضاعف من طول المسافة اعتراض التلال والهضاب مما اضطرننا إلى الانعطاف إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى ، حتى خيل إلّى أنه انقضى عمر قبل بلوغنا سفح الجبل الآخر . ووقفنا أسفله ننظر إلى أعلاه فوجدناه يعلو على السحب ويتحدى الأشواق . وإذا بصاحب القافلة يقول :

— هنا ينتهى سير القافلة يا سادة !

فلم أصدق أذنى وقلت :

— بل تصعد بنا حتى دار الجبل .

فقال الرجل :

— الممر الجبلى ضيق كما سترون لا يتسع لناقة أو جمل .

وهرعنا إلى شيخنا فقال بهدوء :

— صدق الرجل .

— وكيف نواصل رحلتنا ؟

فقال بلا مبالاة :

— على الأقدام كما واصلها السابقون .

وقال صاحب القافلة :

— من يشق عليه السير فليرجع مع القافلة .

ولكن لم تمن عزيمتنا أحد وصممنا على المغامرة . وفكرت في ذاتى وفيمن خلفت وفيما قد يصادفتنى من أسباب تحول دون عودتى ، فكرت في ذلك فخطر لى خاطر وهو أن أعد بدفتر رحلتى إلى صاحب القافلة ليسلمه إلى أمى أو إلى أمين دار الحكمة ، فقيه من المشاهد ما يستحق أن يعرف ، بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدد ما يحيم عليها من ظلمات وتحرك الخيال لتصور ما لم يعرف منها بعد . ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفترنا لخاصا لدار الجبل إذا قيس لى زيارتها والرجوع منها

إلى الوطن . وقبل الرجل القيام بالمهمة ، فنفتحته بمائة دينار ، وقرأنا الفاتحة . تخففت بعد ذلك من وساوسى ، وتأهبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر .

بهذه الكلمات ختم مخطوط رحلة قنديل محمد العنابى الشهير بابن فطومة .
ولم يرد فى أى كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك .

هل واصل رحلته أو هلك فى الطريق ؟
هل دخل دار الجبل وأى حظ صادفه فيها ؟
وهل أقام بها لآخر عمره أو عاد إلى وطنه كما نوى ؟
وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة ؟
علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة .

To: www.al-mostafa.com

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
هنس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
عبث الأقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رادوينس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طيبة	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الخليل	١٩٤٦	رواية
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكينة	١٩٥٧	رواية
الللص والكلاب	١٩٦١	رواية
السمان والحريف	١٩٦٢	رواية
دنيا لله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سئى السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
ميرامار	١٩٦٧	رواية
نخامة القط الأسود	١٩٦٩	مجموعة
تحت المظلة	١٩٦٩	مجموعة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	١٩٨٧ السابعة
شهر العسل	١٩٧١	١٩٨٢ السادسة
المرايا	١٩٧٢	١٩٨٠ الخامسة
الحب تحت المطر	١٩٧٣	١٩٨٠ الرابعة
الجريمة	١٩٧٣	١٩٨٤ الخامسة
الكرنك	١٩٧٤	١٩٨٦ السابعة
حكايات حارتنا	١٩٧٥	١٩٨٦ السادسة
قلب الليل	١٩٧٥	١٩٨١ الثالثة
حضرة المحترم	١٩٧٥	١٩٨٣ الرابعة
ملحمة الخرافيش	١٩٧٧	١٩٨٥ الرابعة
الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
الشیطان يعظ	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
عصر الحب	١٩٨٠	١٩٨٧ الثانية
أفراح القبة	١٩٨١	١٩٨٧ الثالثة
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	١٩٨٥ الثانية
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	١٩٨٥ الثانية
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر		رواية
الفجر الكاذب		مجموعة

رقم الإيداع ٨٩ / ٢٦٤٣

الترقيم الدولى ٥ - ٠٤٨٤ - ١١ - ٩٧٧